

الفصل السابع . حكاء الصين

حضارة ريشية :

قال ثيوسيديدس Thucydides : « يُكِنُّ الناس كل الاحترام لما هو أبعد عنهم شقة » وكان خليقاً به أن يضيف عبارة هي ما زالت أكثر صدقاً ، : « ويرهبونه » ، لأن الرهبة عنصر من عناصر الاحترام . ولقد صور ذلك القول المأثور ونتائج موقف أوروبا إزاء الصين لعدة قرون . وإذا استثنينا الزيارات التي كان يقوم بها من وقت لآخر مستكشف أو بعثات تبشيرية عديدة (كان المبشرون المسيحيون النسطوريون Nestorian Christians أقدمها) ، فإن اتصال أوروبا بالصين يعد اتصالاً حديث عهد نسبياً . ومع ذلك ، فلقد أظهر العالم الأوربي المثقف ، بالفعل ، في القرن السابع عشر ، اهتماماً كبيراً ، بالثقافة الصينية . كم كان إدراكه قليلاً لمسألة أن الثقافة قد يُشكِّك في وجودها من حقيقة أننا ، مع أوثق اتصالاتنا ، ما زلنا لا نفهم إلا اليسير جداً منها . وفي الحديث عن الاتصال بين قطر وآخر ، حتى بين أقطار قريبة في قربها كقرب إنجلترا وفرنسا ، لعله من الواجب الإشارة إلى الاتصال المستمر فقط على أقصى مستوى ظاهري - المستوى الدبلوماسي مثلاً - مضافاً إليه « اتصالات » مختلفة يقوم بها أفراد وشركات أعمال ، أو ، في أوقات الطوارئ ، القوات المسلحة : والأخيرة منها ، افتراضاً ، أقل نمطية منها جميعاً . ولقد كانت لأولى الترجمات للأدب الكلاسيكي الصيني ، التي ربما كانت أكثر من مثيلاتها في أدب الهند ، تأثير عميق على العقلية الأوربية ، وبصورة خاصة العقلية الفرنسية في القرن الثامن عشر . ويوضح « جورج سوريل Georges Sorel » في دراسته الرائعة ، وإن كان قد أغفل أمرها ، والتي أسماها « أوهام التقدم The Illusions of Progress » كيف أن الفيزيوقراطيين الفرنسيين كانوا ينظرون إلى الصين القديمة على أنها لون من الكمونث المسالم ، يحكمه القانون الطبيعي للحق

(٥) نسبة إلى المذهب النسطوري القائل بأن للمسيح عليه السلام طبيعتان ومشيئتان . «الترجم» .

والعدل ، ويعطى نموذجاً قد تتعلم منه « أوروبا المتدهورة » دروساً نافعة . هذا الانطباع في الوقت الذى لم يكن خلوا من عنصر من عناصر الحقيقة ، كان نتيجة تعميم من أمثلة قليلة . وتعد « حكمة » كنفوشيوس ، على سبيل المثال ، حكمة مجددة لنشاط العقلية الأوربية ومؤثرة فيها إلى حد كبير . وعندما صارت هذه الحكمة سهلة المنال لأول مرة بدأ أنها تفتح عالماً جديداً من التوازن والنضج والإدراك . لقد كانت نوعاً من الرسالة التى كان ينتظرها الأوربيون ، بعد أن أجهدهم التعصب الدينى كما أجهدهم الحروب الناجمة عنه . أما عن أن ذلك ينطبق بصورة خاصة على الفرنسيين ، فلقد كان هذا أمراً طبيعياً : لأن الثقافة الإنسانية المتوازنة كانت ولا تزال المثل الأعلى للحياة الفرنسية .

تبقى حقيقة أنه لو كان كونفوشيوس « نمطاً » للثقافة الصينية فى عصره ، لاختلف مجرى حياته تمام الاختلاف عما نعرفه عنه . لقد عاش رسول التوازن والطريق الوسط حياة أكثر جهاداً من البوذا الذى كانت مثله العليا أصعب من أن تتحقق . كان البوذا فى دعوته الناس لنبذ العالم ، يتحرك من مكان إلى مكان عندما تسنح له الفرصة ، وكان يحيط به التملق والمداهنة ، لأن الناس أكثر استعداداً لأن يتجاوبوا مع الدعوة إلى المستحيل عن تجاوبهم مع الدعوة إلى ما هو ممكن . وباستثناء فترات قصيرة من القوة والنفوذ ، لم يجرب كونفوشيوس مرارة النفي الطويل فحسب ، بل مات ، كما سنى خائب الرجاء . ولما حان الوقت المناسب ، عُبد ، وكان هذا وحده برهاناً كافياً لتمييزه عن الأشخاص العاديين ، لأن يوم تأليه « الإنسان العادى » كان بعيداً جداً . وعن « المعلم » قال واحد من تلاميذه : « إنه الشمس والقمر ، الذى لا طريق للصعود فوقها ، برغم رغبة الإنسان فى أن يفصل نفسه عنها ، أى ضرر يلحقه هو بالشمس والقمر ؟ . . إن استحالة وجود نظير لمعلمنا كاستحالة تسلق سلم والصعود به إلى السموات » وحكمة الصين ، كحكمة أى بلد آخر ، تصور أحسن ما يمكن أن يفعله بلد ممثلاً فى شخص قلة من الحكماء ، ولما كان هؤلاء الحكماء قد علموا ما علموا بالفعل ، لو لم تكن حيوات مواطنيهم تفتقر إلى الفضيلة إلى حد بعيد .

لقد اشتهرت المعرفة ، أكثر من الحب ، بأنها تطرد الخوف : قد لا يكون هذا التعميم صحيحاً جداً فى الواقع كما هو مفروض أن يكون صحيحاً نظرياً . ولا شك أن عدم الثقة فى « الشرقيين » أقل انتشاراً مما كان ، ربما نتيجة لتوثيق الاتصالات . ويصعب من ناحية أخرى ، القول فيما إذا كان « الاحتقار » التقليدى الذى يكنه الشرق للغربيين ، باعتبار أنهم

حديثو نعمة ماديون ، قد تضاعف ، أو لم يعد هناك من مبرر لهذا الاحتقار ؛ ويجب أن نلتبس عدرا مناسباً لحقيقة أنها لقرون ، وفي الواقع لآلاف السنين ، شب العالم الشرق والعالم الغربي على عزلة تامة . والعقلية هي الشيء الأخير الذي نعرفه عن شخص من الأشخاص و « عقلية » ثقافة أخرى ، إذا استخدمنا عبارة غامضة لعلاقة غاية في الغموض ، لا يمكن أن تُعرف بالمرّة حتى تصحح وقد تخللتها مؤثرات خارجية فبدلت من طابعها . ويمكن الوصول إلى الكثير من الإدراك والتبصر من دراسة الأدب السابق مادام أن مثل هذه الأبحاث يتابعها رجال خيال وتعاطف ، (وإحدى نكبات الوجود الحضارى هي أن يسند البحث إلى علماء ، هم غالباً ما يميلون إلى قطع صلتهم بالحياة الطبيعية ، نظراً للوقت الذى يحتاجونه لدراسة تكنيك عملهم) ؛ ومن بين مثل هذه المؤلفات تكون لمؤلفات الفلاسفة أو الحكمة قيمتها بصورة خاصة ؛ باعتبار أنها جوهر ذلك الذى أحس به كثيرون في غموض وإن كانت القدرة على التعبير قد أعوزتهم .

وحتى القرن التاسع عشر ، كان الشرق الأقصى يتألف من حضارة ريفية ضخمة ، حضارة ريفية محافظة بطبيعتها . وأنت لا تستطيع أن تعبر ذلك ولكن تستطيع فقط أن توقفه . ولقد تبددت الريفية في الصين واليابان ، أو تبدد جانب منها ، من الخارج . ولقد اكتشفت أوروبا الصين واليابان ، ولم يحدث العكس ، وبعد أن اكتشفت أوروبا هذين البلدين ، بدأت في تحضيرهما بالقوة إلى حد كبير . والشيء الثانى الذى أجهز على الريفية هو ارتفاع مفاجئ في مستوى المعيشة ، لأن ما يعمل على المحافظة على الريفية جملة ، وبصورة خاصة ما يبقى عليها يرغم الصعوبات والعقبات ، ليس الحكومة ولا الشرطة ولا الضرائب المتزايدة ، ولكن النكبات الطبيعية . و « الحكمة الطبيعية » المعزوة إلى العديدين من الريفيين مردها كما أدرك تولستوى Tolstoy عندما أخذ على عاتقه التحرى عن سهولة انقياد عقلية المزارع مردها إلى إدراك أن موقفه لا يسمو كثيراً على الإطلاق على المستوى الوجودى وقائم أساساً في طبيعة الأشياء . وحتى عهد قريب ، حتى حوالى قرن مضى ، كانت طبيعة الأشياء ، هي أن غالبية الناس في العالم كانوا مضطرين إلى احتمال حياة كلها عمل شاق مع عائد بسيط ، تتخللها باستمرار نكبات خاصة ، عادة ما يكون الاستعداد لمواجهة استعداداً بسيطاً ، وغالباً ما ينخفض إلى مستوى بؤس لا حد له ، نتيجة لوباء أو لحرب .

وباستثناء الظروف الطبيعية لوجود الريفي الصينى ، فقد يكون من الخطأ ، مع ذلك ،

افتراض أن حياته ، حتى في أعظم المناطق جدياً ، كانت بالضرورة وحشية . وكلمة وحشية هي كلمة نسبية وحياة صاحب الضيعة في رواية « توم جونز Tom Jones » من المحتمل أن تكون أكثر وحشية من حياة كثيرين من خدمه المقيمين على أملاكه . وإذا كانت كلمة وحشية تعني مزيجاً من الشراسة وعدم المسؤولية ، إذن فحياة الريفين الصينيين متوسطى الحال كانت بدون شك أقل وحشية من حياة كثيرين من السادة المتسلطين والأباطرة . لقد كان تقليدى التضامن الأسرى وطاعة الأبناء للآباء له وجود منذ زمن غارق في القدم ، ولم يعرف العالم الغربى شيئاً مثله . لقد كانت الأسرة تشكل صورة مصغرة للدولة : فيها الأب هو الحاكم ، وبالمثل كانت الأسرة تشكل وحدة اقتصادية كل فرد يسهم في إسعاد الجميع وله مهمته الخاصة التي يجب أن يحققها حتى المسنين منهم ، الذين كانت استفادة الحضارة الأوربية الحديثة منهم استفادة ضئيلة . وأخيراً ، كانت الأسرة تنشئ كنيستها الخاصة بها لأن تجيل الأجداد كان عقيدة أقوى من أى كائن يسمو فوق الطبيعة . وإذا فكرنا في الدين بالمعنى المفهوم في الهند ، بدا أن الصين لا دين لها على الإطلاق : ولكننا إذا عرفنا الغريزة الدينية على أنها تلك التي تكون لها الغلبة على غرائز قوية مثل غرائز الجنس والبقاء ، لكان الصينيون بكل تأكيد في عداد من هم عميقو التدين . وكان أجساد الأجداد ، على سبيل المثال تدفن في قطعة الأرض الخاصة بالأسرة ، وعادة ما تكون تلك البقعة صغيرة ، ولكن كان يخصص للأجداد أخصب جزء منها باعتبار أن ذلك أمر مفروغ منه .

فكرة « الطريق » ؛ لاو - تزي Lao Tze

غالباً ما كان يُنظر إلى حكماء أمثال « لاو - تزي » و « كنفوشيوس » على أنهم قد علموا الناس طريقاً جديداً للحياة . وليس ذلك هو كيفية إدراكهم لرسالتهم الشخصية ، فعملهم - عمل « النبي » ، كما وصلنا إلى فهمه ، خلال هذا الكتاب - كان العودة بالناس إلى الحكمة القديمة . و« كنفوشيوس » بصورة خاصة ، فيما يتصل بآرائه ، لم يدع أنها تحمل أى ابتكار . لقد أعرب عن أسفه فقط أنه نتيجة للإهمال والجهل صار الكثير من الطقوس الدينية في حالة عدم استعمال ، فضلاً عن ذلك من فقدان الحقائق التي كانت ترمز إليها . لقد كان يعتبر نفسه ، بصورة خاصة « كجهاز إرسال » . وعلى شاكلة « لاو - تزي » أكبر الاثنين سنّاً ، شرع في أن يوضح للناس الطريق إلى الفضيلة والقناعة . هذا المسلك أطلق عليه على الوجه

السليم جداً اسم « الطريق » أو « الطاو Tao » ، أما كيف يمكن اكتشاف هذا الطريق فقد اختلف فيه ، مع ذلك ، « لاو - تزي » و « كنفوشيوس » اختلافاً واضحاً ، أحدهما عن الآخر . وترجمة « الطاو » بـ « الطريق » ترجمة معقولة ، مادامنا لانعرفها بأنها تكنيك ، وَصِفَةٌ للسعادة ، وهذا فحسب جزء يسير من معناها ، وهي تعنى أيضاً أساس الكون ، ذلك الذى يحفظه ويمنحه الحركة والنظام . وتماماً كما أن النجوم قد حددت مسارها ، فهناك أيضاً طريق للإنسان ، وسيلة قد يستطيع بها أن يربط وجوده بالواقع : واقع قد صار بعيداً عنه إلى حد ما . و « الطاو » هى أصل كل معنى فى الكون ، وهى مسؤولة ايضاً عن كل الأشياء المخلوقة ؛ ولكن الأشياء يجب أن تُخلق ، والخلق فى الواقع يتم عن طريق عنصرين هما : « ين Yin » و « يانج Yang » ومعنى « ين » الحرفى هو « الظل » ويعبر عنه بالكتابة التصويرية بالجانب الشمالى للجبل والجانب الجنوبى لنهر ، لأنه فى الصباح تكتنف الظلمة جنوب النهر ؛ أما « يانج » فن ناحية أخرى ، يعنى « الضوء » ، ويعبر عنه بصورة مغايرة ، و « يانج » إيحائى ، و « ين » سلبى ، والأول ذكر والثانى أنثى . ولكن « ين » و « يانج » لا يشكلان مذهب الثنائية Dualism الذى يقسم العالم إلى قسمين . هذه المبادئ من خصائص عالم الظواهر فقط . وفى بُب الواقع تُوجد « الطاو » ، الوحدة .

ولقد ورد أول بيان لفكرتى « ين » و « يانج » ، على ما نذكر فى كتاب غامض عنوانه بقدر غموض محتواه ، اسمه « آى - تشنج I. Ching » أو كتاب التغيرات Book of Changes . وإن من يعلنون أن العقلية الصينية عاجزة عن التأمل الميتافيزيقى ليتجاهلون مقدار ما يتمتع به هذا الكتاب من مقام رفيع ! بل إن « كنفوشيوس » ، رغم اهتمامه بالميتافيزيقيات ، قام بإعداده وأضاف إليه تعليقاته هو شخصياً .

ولقد صار هذا الدليل بقائمه التى تحوى أربعاً وستين هسيانج hsiangs أو « فكرة » ، التى باتحادها شكلت واقعاً صار بمضى الوقت مصدراً لسحر رخيص ومصدراً للكهانة . وكان هذا دليلاً إضافياً على طابعه التقليدى المقدس ، لأن الكتب التى كان من المعتقد أنها تتضمن وحدها محتويات روحية أصيلة من المحتمل أنها كانت تستخدم فى مثل هذا الاستخدام أو تهمل^(١) . لقد استخدمنا لفظة « رخيص » عن قصد : لأنه لو كان الغرض الأسمى لكتاب « آى » تشنج « غرضاً تنجيمياً » ، كما يبدو مؤكداً ، فإن هذا لا يقلل من عمق أساسه . ولقد

(١) انظر كتاب : « Sortes Virgilianae » ، الذى صدر فى القرون الوسطى .

أعلن عالم سيكولوجي عظيم هو س . ج . يونج C.G. Jung أن كتاب « آى - تشنج » يجسد جوهر الثقافة الصينية ، لأن ما يجذفه الشخص المنطقى العصرى - دون أن يفهمه - على أنه تنجيمى ، وما ينظر إليه العلم الحديث على أنه محض خرافة ، يراه « يونج » على أنه لون من المعرفة أقدم بآلاف السنين من تكتيكنا : « العلة والتأثير cause-and-effect technique » ، الذى ندعوه بأثره القمى ، علماء . وفى رأى « يونج » أن كتاب « آى - تشنج » بشكل رسالة عما يمكن أن يطلق عليه عبارات علم النفس الحديث : « المطابقات السيكلوجية Psychic Parallelisms » وأنه يتفق ومبدأ « المعاصرة أو اتفاق زمن الحدوث Synchronism » أو « الاتحاد النسبى لزمن الحدوث Relative Simultaneity » : لأن الحقيقة الأساسية لعلم التنجيم أو جمع المعرفة السيكلوجية لما هو قديم ، ليست إلى حد كبير فى تحكم النجوم فى مصير الإنسان ، كالقول بأن « ما يولد أو يؤدى فى هذه اللحظة من الزمن له صفات هذه اللحظة من الزمن (٢) » . ولا نعرف على وجه الدقة كم عمر كتاب « آى - تشنج » ، ولكننا نعرف أنه قد تداولته أيدي جيل بعد جيل باعتبار أنه يجسد حكمة ثمينة . ومثل هذا المصير لا يحلُ بمجرد ملخص للتعاويد والرقى Abracadabra .

وكان أول فيلسوف تجاوب مع دقة مبدأ « الطاو » هو : « لاو - تزي Lao-Tze » ، الذى له شهرته كمؤلف كتاب بعنوان « طاو - تي - تشنج Tao-Te-Ching » ، الذى يعنى « كتاب دستور الطريق و الفضيلة . The Book of the Way and of Virtue . » . و « لاو - تزي » شخصية غامضة والواقع أن هناك بعض الشك فيما إذا كان له وجود بالمره ، واسمه نفسه قد يوحى بشخصية أسطورية ، لأنه يعنى ببساطة « المعلم العجوز » : ولكن من الواضح أن كان له اسم آخر هو « لي Li » ومعناه ، البرقوق . ومن ناحية أخرى يقال إن « كنفوشىوس » التقي به ، كما ذكر اسمه عدة فلاسفة آخرين . وعندما يجذف المؤرخون اسم شخص باعتبار أنه اسم أسطورى دون أن يقدموا عنه أى دليل آخر ، فإن كل ما يعنونه عادة هو أنهم لم يكتشفوا بعد مجموعة أخرى من الأساطير . على أية حال ، فإنه من المفروض أن

(٢) انظر كتاب : « سر الزهرة الذهبية The Secret of the Golden Flower » ترجمة وشرح ريتشارد ويلهلم

Richard Wilhelm مع تعليق أورلى كيه . س . ج . يونج C.G. Jung (دار كيجان بول للنشر ، ١٩٤٥) .

« لاو-تزي » ولد في سنة ٦٠٤ ق. م. في محافظة هونان Honan في الصين الوسطى ، وبرغم أنه نشأ في بيت فقير ، فقد ارتقى حتى صار أميناً للمكتبة الملكية في تشو Chou وعاش حتى سن متقدمة وذاع صيته كحكيم ، بيد أنه كان واضحاً أنه فشل في ممارسة أى نفوذ واضح خارج دائرة صغيرة . وقرب نهاية حياته ، إيماناً منه بأن مآل وطنه الفوضى ، عزم على مغادرته . وعند الحدود ، لما تعرف موظف الجمرك على الحكيم المبجل ، صرح له بمغادرة البلاد بكل ما معه من أمتعة بشرط أن يخلف وراءه شيئاً لصالح بلاده ، أعنى حكيمته . ولما لم يكن « لاو-تزي » قد دوّن أفكاره حتى ذلك الوقت ، وافق على هذا الشرط . ولما بدأ في العمل على الفور ركز كل أفكاره في خمسة آلاف كلمة ، وهي أفكار يجب أن تسجل في سجلات الفلسفة ، وهكذا دوّن كتاب « طاو-تي -تشنج » . أما ما حدث لـ « لاو-تزي » بعد ذلك ، فلم تذكر أية أسطورة عنه شيئاً ، اللهم إلا تسجيل تاريخ وفاته الذي حدد بعام ٥١٧ ق. م .

ولربما كانت فلسفة « طاو-تي -تشنج » واحدة من أكثر الفلسفات ثورية في صياغتها ، وإذا فسّرت تفسيراً حرفياً ، أو فسرت حرفياً بالمعنى الذي نستطيع أن نفهمه ، مثلت هجوماً على كل شيء اتجه إلى تشكيل ما يدعى حضارة . وينصحننا « لاو-تزي » « بالألا تتدخل في أمر من الأمور » وهو يطالب الحكومات بصورة خاصة بالألا تتدخل في أمر من الأمور . وباختصار لا يرى شيئاً سوى الشر في فكرة الحكومات . وعلى غير شاكلة جل الفلاسفة الآخرين ، هو لا يمجّد المعرفة ولا يصفها بالفضيلة كما فعل سقراط بعد ذلك بزمن يسير . بل هو على العكس من ذلك يمجّد الجهل الذي يصفه بصورة قاطعة بالسعادة . ومرة أخرى ، يرفض الحكيم الحق أن يجادل . واتباعه « الطاو » يضرب مثلاً للبساطة والرضا إذ ، باعتباره بطبيعة الحال مثلٌ مُعَدِّ ، له تأثير مهدي على مواطنيه . و« الحكيم » كما يقول « لاو-تزي » : يباشر مهمته بدون مجهود ، ويقدم تعاليمه بدون كلمات . إن كافة الصفات السوية لخلق مجتمع عادل يغض هذا الفيلسوف النظر عنها باعتبار أنها لا جدوى من وراثتها ، بل خطرة ويجب أن تمتنع عن ذلك ، لأنه ليس أخطر من تلقين الاستقامة ذاتها ، مادام أن كل المحاولات في بث الخير من خلال التشريع سيتبع عكس ما هو مقصود . « لو تخلفت من العلم ، لما عرفت الحزن ، تخلص من الحكماء ولا تقبل الحكمة . وسيستفيد الناس مائة مرة . لا تركز على الإحسان وانبذ الاستقامة وسيعود الناس إلى واجهم الأخوى وإلى الحب الأبوى .

تخلص من الخيل وانبذ المكاسب يخنق السالبون واللصوص . . كن صريحاً وتمسك بالبساطة» .
هذا هو جوهر رسالته .

ومثلما ينصح « لاو-تزي » مواطنيه ألا يتدخلوا في أمر من الأمور ، فهو ينصحهم كذلك بأن يبقوا حيث هم ، وفي ذلك يقول : « دون أن يغادر المرء بلاده ، يستطيع أن يعرف كل شيء عن العالم ، وبدون التلصص من النافذة ، يستطيع المرء أن يرى طاو السماء ، وكلما طالت أسفار الإنسان كلما قلت معرفته ، ولذلك فإن الحكماء يعرفون كل شيء دون أن يسافروا . وهو يسمى كل شيء دون أن يراه ، وينجز كل شيء دون أن يؤديه » ، لذلك فالمجتمع المثالي هو « دولة صغيرة بها قلة من الناس » ، هذه القلة يجب أن تكون راضية بما عندها ، وستكون راضية بما عندها ما لم تكن تسعى لتوسيع أفقها ، « وبرغم أن الدول المجاورة داخل نطاق الرؤية ، ويُسمع صياح ديكها ونباح كلابها ، فلن يقترب أهالي (تلك الدولة الصغيرة) منها طوال حياتهم » . لاشك أن هذا المبدأ كان غريباً أن يصدر عن شخص هو ، في الوقت الذي كان يدوِّنه على ورق (أو قطع البامبو كما كان هو المتبع في الواقع) كان يعد نفسه فعلاً لمغادرة وطنه ، ولكن وجهة نظره كانت طريفة في أنها كانت حلا بالنسبة للكائنات البشرية التي لم تجربها قط ، يصعب الحكم عليها على الفور . ولربما كان أحسن تلخيص لأفكار « لاو-تزي » عن فن الحكم ، هو في عبارة نمطية في تعبير وتفكير الحكمة الصينية كليهما : « احكم دولة كما لو كنت تطهو سمكة صغيرة : أد ذلك في رفق » .

مثل هذه التعاليم المعبر عنها بوعى وبصراحة جديرين بالاعتبار ، قد لقيت صدى في كل عصر ، إن لم يكن في كل جيل من الأجيال . وليس هناك من دليل على أن « جان جاك رومو Jean Jacques Rousseau » عرف أعمال لاو-تزي » ولكن أفكاره الأولى عن المجتمع وعن فن الحكم متماثلة ، مع احلال الطبيعة ، محل « الطاو » . والمشكلة التي أثارها مثل هذه الرؤيا المثالية للوجود هي ، ولا حاجة للقول بأنها مشكلة عملية : ما هو موقف دولة صغيرة إذا ما واجهت - كما لا بد أن يحدث إن عاجلاً أو آجلاً - هجوماً أو تدخلا خارجياً ؟ كان « لاو-تزي » حكيماً بما فيه الكفاية في تنبئه بهذه المشكلة . كما تنبأ أيضاً ، وحده دون غيره من المفكرين القدامى ، بكلمات السيد المسيح : « قابل الإساءة بالإحسان . أنا في نظر الصالحين صالح ، وفي نظر الطالحين ، أنا أيضاً صالح ، ومن ثم يجب على الكل أن يكونوا صالحين . أنا في نظر المخلصين مخلص ، وفي نظر من هم غير مخلصين أنا

أيضاً مخلص ، ومن ثم وجب على الكل أن يكونوا مخلصين . . إن ألين شيء في العالم يصطدم ويتغلب على أصعبها . . . ليس في العالم ألين أو أضعف من الماء ، ومع ذلك فإنه في مهاجمة الأشياء الثابتة والقوية ، ليس هناك من شيء يمكن أن يتفوق على الماء ، ويضيف في إنصاف : « كل هذا يعرفه العالم ولكنه لا يمارسه . . هذه هي كلمات الصدق ، برغم أنها تبدو متناقضة » .

لماذا يوجه « لاو- تزي » مثل هذه الأهمية للسلبية ، بل يتأدى إلى التصريح بالتناقض التالي ، الذي ورد في العبارات المختلفة قليلاً ، والتي تفوه بها « كريشنا » وهو أننا يجب أن نعمل في « جمود^(٣) Inaction » ليس الأمر في أنه يقيم التناقض بقصد التناقض ذاته ، كما نشك في أن بعض حكماء الهند قد فعلوا . إن مبدأه عن السلبية نتيجة منطقية لمفهومه عن طبيعة « الطاو » . « والطاو » ، كما سبق أن رأينا ، مفهوم مماثل جداً للمفهوم المصرى ماعت Maat والإغريقي لوجوس Logos يبعث الحياة ويتغلغل في الواقع : وهو أيضاً يتولد ويتجسد . وقد ابتدأت ، في الواقع ، الترجمات الصينية لفاتحة الإنجيل الرابع^(٤) كما يلي « في البدء كان « الطاو » ، « والطاو » كان عند الإله ، وكان « الطاو » « الله » وتاماً كما يرد في موضع من المواضع أن « الكلمة صارت جسداً » فكذلك « النور الذى ينير كل إنسان » آتياً للتعرف على قرابته بالقوة المقدسة . وإذا أردنا ترجمة هذه العملية بعبارات من الفكر الهندى نقول : تصبح « الآتمان » « براهمان » . ويدرك الفيلسوف الطاوى تطابقاً مماثلاً . والعالم في حالة من البؤس ، أو بالأحرى لا يعيش الإنسان على سجيته في عالمه ، لأنه قد فشل في مطابقة « طاويته » مع الكون . فالاثنتان في نزاع . دعه يكف عن التعلم ، وعن مراعاة العرف ، بل دعه يكف عن الحضارة ، وبذلك سيعود التناقض وسيتضح أن « الطاو » التى في أعماق نفسه هي « الطاو » التى كان « لها وجود قبل السماء والأرض ، بلا ، حركة وبلا عمق ، تقف وحدها ولا تتبدل أبداً ، هي أم الكون » .

(٣) العبارة الصينية الخاصة بهذا المفهوم الشهير ، مفهوم « الجمود » هي « وو واى . Wu Wei » .

(٤) فارق ذلك بالأصحاح الأول في إنجيل يوحنا (وهو الإنجيل الرابع في العهد الجديد) « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . . . كان النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان آتياً إلى العالم . . . إلى خاصته جاء . . . والكلمة صار جسداً وحل بيننا » . (إنجيل يوحنا) الأصحاح الأول ، آيات : ١ - ١٤ ، (المترجم) .

كونج - فو - تزي Kung-fu-tze : مولده وتنشئته :

لم يكن فيلسوفان أكثر اختلافاً أحدهما عن الآخر في شخصيتهما من « لاو - تزي » و « كنفوشيوس » : ورغم هذا الاختلاف في المظهر ، كان تأثيرهما محتوماً عليه بعدم التكافؤ. ولا تزال الطاوية عقيدة حية : وأحدث تقدير هو أنه لا يزال يعيش في الصين ، ثلاثة وأربعون مليوناً من الطاويين . وهذا عدد ضخم ، ولكن لعله أبسط دليل على قوة العقيدة ، كالقول إن عدداً مماثلاً من الناس في فرنسا كاثوليك . وفضلاً عن هذا ، يجب أن نأخذ في اعتبارنا عند الحديث عن الصين ، أن التمسك بصورة واحدة من العقيدة لا يحول دون التعاطف مع عقيدة أخرى أو عدة عقائد . والصيني المتعلم ، مجرد أنه متعلم ، على استعداد لأن يقدم احترامه لأية عقيدة مماثلة ؛ وما يؤمن بكرهيته هو : التعصب الديني Fanaticism والتحيز Bigotry ولعل الديانة الحقيقية للصين ، في أعظم مستوى فكرى لها ، هو التسامح الديني . وفي الوقت نفسه ، يجب ألا نتصور أن الاستعداد والقدرة على التسامح مع العقائد الأخرى هو بالضرورة أمر غريزي في الشعب الصيني (الذي هو على أية حال كثير العدد ، لكثرة يصعب إجمالها في تعميم من هذا النوع) : إذ أن مثل هذا الموقف هو نتيجة تقليد طويل وراسخ في العمق . وواضح هذا التقليد - وهو تقليد من أعظم التقاليد الإنسانية - هو « كنفوشيوس » .

واسم « كنفوشيوس » هو أحسن الأسماء التي أمكن لأوربا ، بثقافتها اللاتينية ، أن تعيه من اسم « كونج - فو - تزي » الذي يعنى حرفياً « كونج ، المعلم » . كان اسمه الحقيقي هو « كونج - تشيو Kung-Chiu » . وعلى شاكلة غيره من زعماء البشرية الروحانيين ، حظى « كنفوشيوس » بمولد إعجازي ، مصحوباً بمعجزات سماوية . لقد كان الابن غير الشرعي لأب طاعن جداً في السن . ولد « كنفوشيوس » في سنة ٥٥١ ق.م . في مملكة لو Lu ، شانتونج Shantung الحالية . ولقد وصفوه ، وربما كان على سبيل التورية ، بأن كانت له شفتا توروفم أشبه بالبحر . ولعل أكثر الأوصاف صدقاً هو أنه كانت له جبهة ضخمة ، ومن ثم أطلق عليه اسم تشيو Chiu . وكما قيل عن بوذا ، انفجرت نافورة لتغسل الطفل حديث الولادة ، الذي ولد في كهف قادت أمه إليه روح مبشرة . وكانت تنشئة الطفل صعبة . وبعد وفاة والده اضطر لأن يعول أمه ، فكان يؤدي أعمالاً إضافية بعد ساعات الدراسة . ولا شك أنه كان دائماً يكبر عمره . ويمكننا أن نتصور طفولة جل عظماء الفلاسفة فيما عدا « كنفوشيوس » - ولا شك أن

جبهته الضخمة قد جعلته يبلغ سن المراهقة مبكراً ، ومع ذلك فإنه لم يكن بحال من الأحوال انطوائياً أو مدمناً على القراءة . وكانت الرياضة التي يحبها ، بصورة خاصة ، هى رماية السهام وصيد السمك . وكان منذ نعومة أظفاره شديد الوله بالموسيقى بالرغم من أن تذوقه لها -وهنا كما فى أى مكان آخر- كان متحفظاً . ولقد تزوج فى سن التاسعة عشرة . ونحن لانعرف الكثير عن حياته الزوجية . وكانت زوجته على ما نعلم ، من ولاية سونج Sung ، وهى ولاية مجاورة لولايتيه . وتقرر بعض الروايات أن الاثنتين انفصلا بعد زواج دام أربع سنوات ، فى حين أن البعض الآخر منها تذكروا أن الانفصال قد تم فى الوقت الذى نُنَى فيه «كنفوشيوس» ، والذى حدث بعد ذلك بعشرين سنة . ويوحى مجموع البيانات التى فى متناول أيدنا بأن عقد الزواج ، نظراً لأنه قد اتفق عليه طبقاً لأسباب تقليدية ، قد أبقي عليه طوال المدة التى تملئها التقاليد . وكانت ثمرة الزواج ابناً له هو «كونج لى Kung Li» أو كما سُمى فى المقتطفات الأدبية The Analects «بويو Po Yu» . ونحن نعلم أن «بويو» تتلمذ على أبيه ، ولكن من الغريب القول بأن الاثنتين يبدو أنه لم يكن يربط بينهما أى تعاطف أقوى . وكان الحوارى الذى أحبه «كنفوشيوس» ، ويعد بمثابة قديس يوحنا أو «أناندا» الكنفوشيوسية - كان «ين هوى Yen Hui» ، الذى كانت حياته نموذجاً لما ينبغي أن تكون عليه حياة الحكيم الحققة . مارس «كنفوشيوس» رسالته معلماً أو حكيماً أكثر تذكيراً فى حياته من معظم زعماء البشرية الروحانيين وما أن بلغ سن الثانية والعشرين حتى ذاع صيته فعلا لحكمته وحياته المستقيمة معاً . وفضلاً عن هذا ، كانت له موهبة عظيمة فى الفصاحة . ولما شجعه نفر من عشرته المتحمسين . قرر أن يفتح مدرسة وكان ما انتهى إليه هذا الأمر هو أنه فتح داره لأى شخص يريد العلم : وكانت المصروفات تجبى على أساس قدرة التلميذ على الدفع . بيد أن «كنفوشيوس» لم يبدأ بتقديم نوع من الحكمة المجردة . لقد أخذ على نفسه تعليم «موضوعات» معينة ، أهمها التاريخ والشعر ومبادئ ما أسماه بالسلوك العام Decorum . ولما كان فى اعتقاده أن المجتمع يعانى من إهمال الحكمة التقليدية ، لذا فقد بذل «كنفوشيوس» جهوداً مضنية ليلقن تلاميذه معنى الشعائر القديمة والأناشيد الرسمية ، ناهيك عن مثل تلك المستودعات من الحقيقة ك«كتاب التغيرات» . وكان فوق كل شىء على إيمان كبير بفاعلية وتأثير الموسيقى فى الصقل الأخير لشخصية الإنسان ، ولكن هذا القول قد لا يتفق والموسيقى الصينية الحديثة - مثل أغنيات تشنج The Songs of Cheng التى جاءت بنتيجة عكسية . أما عن موقف «كنفوشيوس» من

الموسيقى فيكاد يشبه موقف « شوبنهاور » منها : لم يكن يؤمن فقط بأنها تصوّر تناسق الكون بل ترمز إلى الوثام الذي ، لو وهب للحكام المتنورين لعم الدولة بأمرها . ولاشك أنه ربما أصابته الحيرة من مناهجها التعليمية الحديثة ، التي غالباً ما يُنظر فيها إلى الموسيقى على أنها إنجاز « فائض » أو إضافي ، على أحسن تقدير . وقد يكون إهمال « فلسفة » الموسيقى أوضح دليل على شعور الإنسان بالعزلة في الكون .

اتساع الشهرة :

لما تزايد عدد تلاميذه ، بدأ يصبح « لکنفوشيوس » نفوذ في البلاد ، لأن كثيرين من تلاميذه الشباب ، مالبثوا أن تقلدوا مراكز قيادية . وفي سنة ٥١٨ ق . م . أعرب وزير ولاية « لو Lu » عن أمنيته ، وهو على فراش الموت ، في أن يلتحق ابنه بمدرسة « کنفوشيوس » . منذ تلك اللحظة ، صار « کنفوشيوس » نذاً ، فضلاً عن كونه معلماً ، للأمرء ، ولهذا كان راضياً بالبقاء في أكاديميته الصغيرة معلماً حتى الضمير ، ثم أحس بالرغبة في السفر ، كما تلقى بالمثل تشجيعاً رسمياً على ذلك . وكانت أولى رحلاته الهامة إلى عاصمة الولاية « لو - يانج Lo-Yang » (حالياً هونان Honan) . ولقد فتنه ما رآه في هذا المكان الحافل بالحركة وبخاصة إقامة الشعائر الدينية والاحتفالات الرسمية في المعابد الفخمة .

وفي « لو - يانج » كان هناك أيضاً مصدر آخر لاجتذاب « کنفوشيوس » : فلقد كان هناك « لاو - تزي » ، وكان وقتذاك في السابعة والثمانين من عمره . على أن « کنفوشيوس » ، الذي كان عمره أقل من نصف عمر « لاو - تزي » برغم ما قدمه للأخير من احترام واجب ، يبدو أنه قد ترك عند « لاو - تزي » انطباعاً أقل من أي انطباع تركه عند معظم الناس غيره . وفي رده على بعض الأسئلة الغامضة عن التاريخ القديم وعن قدماء رجال الحكمة ، عبّر الرجل العجوز عن نفسه بصورة أكثر عنفاً وصراحةً معاً ، إذ قال : « إن من تسأل عنهم قد تعفوا مع عظامهم في التراب ، وعندما تحين ساعة الرجل العظيم ينهض للزعامة ، ولكن قبل أن يجين أوانه توضع العراقل أمام كل محاولاته . لقد سمعتُ أن التاجر الناجح ينجح بثروته بجرص ، ويعمل كما لو كان لا يملك شيئاً - وأن الرجل العظيم يرغم وفرة إنجازاته ، بسيط في سلوكه وفي مظهره . تحل عن كبرياتك ومطامحك العديدة ، وعن تظاهرك وعن أهدافك العريضة . إن سجتك لن تكسب شيئاً من كل هذه الأشياء . هذه هي نصيحتي لك . »

ويبدو أن «كنفوشيوس» وعى هذه الكلمات عن ظهر قلب بصورة جديّة ، لأنه عندما عاد إلى مدرسته نقل انطباعه عن العجوز المنقّى في العبارات الحية التالية : « أعرف كيف تستطيع الطيور أن تطير أو السمك كيف يسبح والحيوانات كيف تعدو ، ولكن العداء يمكن إيقاعه في الشرك والسباح يمكن قنصه ، والطائر يمكن إصابته بالسهم ولكن هناك التنين - لا أستطيع أن أقول كيف يمكنه أن يعتلى الريح خلال السحب ويصعد إلى السماء . لقد رأيت اليوم « لاو - تزي » وأستطيع أن أقارنه فقط « بالتنين » مثل هذا كان عرفان فيلسوف الإنسانية بقدر رسول مذهب الطبيعة التصوفية : عرفانا أحسن ما يوصف به أنه عدم الفهم المحترم .

وإذا كان «كنفوشيوس» لم يظهر أى ميل شخصي للتفكير الصوفي ، فلقد كان على علم بالسحر الذي كان يؤثر به مثل هذا التفكير في جمهرة البشر . وهو لم ينكر وجود عالم روحي أسمى ، بل هو بالأحرى أعطى الأولوية لاعتبارات الحكومة الإنسانية والرفاهية والسعادة . ولقد اتبع في تأملاته الخاصة ، مثلما اتبع في تعاليمه ، منهج البحث العقلي والمنطقي . أما عن تطوير حالات السبات طبقاً لمبادئ اليوجا ، فقد رفض دائماً أن يطبقه بنفسه ، بعد بضع تجارب مبكرة : « لقد قضيتُ يوماً كاملاً بدون طعام ، والليل بطوله بدون نوم لكي أتأمل ولكن بلا جدوى . من الأفضل التعلم » . ومرات ومرات ، عندما كان يُسأل عن أمور فيما وراء الخبرة المباشرة البشرية ، كان «كنفوشيوس» يجيب بكلمات أكثر وضوحاً من اليوذا نفسه ، وإن كانت له دوافع مختلفة جداً . وعندما سأله تلميذه « تزو - لو Tzu-Lu » أن يتحدث عن واجب الإنسان إزاء أرواح الراحلين ، أجاب « إذا كنت لاتزال عاجزاً عن أداء واجبك إزاء لأحياء ، فكيف تستطيع أن تؤدي واجبك إزاء الأموات ؟ » وفي مناسبة أخرى ، عندما سُئل عن طبيعة الموت ذاته ، أجاب في شيء من الاستخفاف : « إذا كنت لا تفهم الحياة ، فكيف يمكن أن تزعم أنك تفهم الموت ؟ » وكثيراً ما كان يتعرض لتلاميذه لانتقادات بل سخريات التساك الذين كانوا يحيون حياة البساطة وحياة العزلة ، لأنه حتى ذلك الوقت كان ينظر إلى الشخص الحكيم على أنه الشخص الذي من الأفضل أن يركز أفكاره ويتخلى عن كل اتصال بالعالم . ولقد كان « لكنفوشيوس » بالنسبة لهذه السخريات ، دائماً رد مؤثر جداً : « إنني لا أستطيع أن أسير مع أسراب الطيور وقطعان الحيوانات ، وإذا لم انضم إلى البشر فإلى من يمكن أن أنضم ؟ وإذا لم يكن للحكم الصائب أن يسود العالم ، فلا ينبغي لي أن أشارك في إصلاحه » .

وفي سنة ٥١٧ ق.م. حلت أزمة بولاية لو Lu . إذ إن الدوق الذي كان يعاني من ضغط بعض الزعماء حاول استعادة نفوذه . وفشل الانقلاب . ولهذا رضى «كنفوشيوس» أن يتبع مولاه إلى المنفى . وبينما كانا في طريقهما إلى ولاية تسي Tsi المجاورة ، التقى الحكيم وتلاميذه بامرأة عجوز تبكي أمام قبر ، فسألوها ماذا ألمَّ بها ، فأجابت بأنه في نفس البقعة شهدت مأساة ثلاثية : إذ قتلت المور حماها وزوجها وابنها . فسألها «كنفوشيوس» ، محاولاً مواساتها ، لماذا قررت أسرتها ، برغم ما حدث أن تستوطن في مثل هذه البقعة الخطيرة من البلاد . فأجابت قائلة : «لأنه لا وجود هنا لأية حكومة جائرة» ، فالتفت «كنفوشيوس» إلى تلاميذه وقال : «دُونُوا هذا : إن الحكومة الجائرة أكثر وحشية من العمر» .

وعندما بلغوا «تسي» ، اجتمع الدوق على الفور «بكنفوشيوس» ، وقد أعجب الدوق بملاحظات الحكيم عن فن الحكم ، وفكر في تعيين «كنفوشيوس» في منصب رفيع ، ولكن هذا التفكير لقي معارضة من جانب وزرائه الآخرين ، الذين سخروا من الجمهرة الصغيرة التي كانت حوله من طلاب العلم ، منددين بأنهم أذعياء علم غير عمليين . أما عن رأيهم في «كنفوشيوس» نفسه فكانوا لا يعتبرونه أكثر من فضولي شاذ ، تُغلب عليه رقة آداب الرسميات . وقالوا : «قد يستغرق الأمر أجيالاً لاستتزاف كل ما يعرفه عن الاحتفالات الخاصة بالهنوز والجلوس» وبقى «كنفوشيوس» لعدة سنوات ولكن دون أن تُسند إليه حتى أبسط وظيفة حكومية ، وأخيراً عندما علم أن الأوضاع في «لو Lu» قد تحسنت بعض الشيء ، عاد أدراجه إلى وطنه .

الحكيم موظفاً : المنفى .

لقد كوفئ «كنفوشيوس» أخيراً على صبره ، إذ قرر الدوق الجديد ، وكان يدعى «تنج Ting» ، أن يجرى تجربة إسناد أمور الدولة إلى شخص ليست له أية تطلعات سياسية ظاهرة . لقد كان الرجل الذي علّق قاتلاً «لا يهمني أن يكون لي مكان : بل يهمني كيف يمكنني أن أكون صالحاً لمكان» هو الذي وقع عليه الاختيار . وفي سنة ٥٠١ ق.م. صار «كنفوشيوس» رئيساً للقضاة أو حاكم مدينة «تشونج - تو Chung-Tu» . وعلى الفور بدأ في العمل . وفي فترة وجيزة جداً ، كما روى لنا ، حدث تحول اجتماعي مذهل . وقد بلغ مستوى الأخلاق درجة من السمو لم يبلغها من قبل أبداً ، وكان يبدو أن العصر الذهبي قد عاد . وقد

بلغت الأمانة التامة مبلغاً حتى إنه إذا ماسقت أية أشياء ثمينة في الطريق العام أن تترك في مكانها أو تعاد إلى أصحابها . وقد صار الناس في دهشة من فضيلتهم هم أنفسهم . ولما وجد الدوق أن أعباء الحكم قد خفت بصورة جذرية بالاعتبار ، رقى « كنفوشيوس » إلى منصب وزير الأشغال العمومية ، وقد قرر الوزير الجديد أن يكون عملياً ، فاتخذ الإجراءات اللازمة لمسح الأراضي وتحسين الزراعة ، ونتيجة لذلك ، عم الرخاء بسرعة وفقاً لأسلوب مثالي . وقد دفع هذا بالدوق ، الذي لم يكن أقل بهجة من رعيته ، إلى أن يطوق « كنفوشيوس » بمزيد من المسئوليات . وبعد أن رقى إلى وصيه وزير العدل ، استندت إليه أخيراً وظيفة رئيس الوزراء ، وأحسن « كنفوشيوس » استخدام سلطة تعد السلطة الثانية اسمياً ، إن لم تكن أسمى بكثير عملياً من سلطة « تنج » نفسه . وعند هذه النقطة تصبح التسجيلات الصينية وجدانية ، فنقرأ مثلاً : « كان الغش والفساد خجلين وأخفياً رأسياً ، وصار الولاء والإيمان الصادق خصال الرجال ، والظهور ودماثة الأخلاق صفات النساء . ووفد الأعراب في حشود ، من الولايات الأخرى ، وصار كنفوشيوس معبود الناس . » قول فيه مبالغة بلا ريب . ولكننا لدينا أعمدة « آشوكا » التذكارية لتبرهن على أنه ، إذا ما عيّن حاكم له شخصية قوية ، فإن مثل هذه التغييرات ليست بالمستحيلة . أما ما هو مستحيل ، إذا ما حكمتنا بطبيعة بشرية ، هو أن تستمر وتبقى .

ولم تستمر بالفعل - برغم أن « كنفوشيوس » قل أن يكون ملوماً على ذلك . ولم يأت عنصر العزق من الداخل ، بل من الخارج . ذلك أن حكام الولايات المتاخمة لولاية « لو Lu » بدءوا يحسون جدباً بأنهم في خطر ، إذ كانت إنجازات « كنفوشيوس » التي توه بها الشعر ومجدها ، ربما دفعت الناس المغلوبين على أمرهم في أية ولاية أخرى إلى الإصرار على تطبيق أسلوب مماثل من جانب حكامهم . وكان هؤلاء المستبدون مقتنعين بألا فائدة من استقامة الشعب ولا من إخلاص مفسريها في « لو Lu » . ولما أحس وزير ولاية « تسي T'si » أن من المفروض عليه أن يفعل شيئاً جاداً قبل أن تتفشى عدوى الأمانة في ولايته ، فكر في خطة ليضع « كنفوشيوس » ودوقه كلا منهما في مواجهة الآخر . ففي يوم تلقى دوق ولاية « لو » هدية نفيسة ، كانت تتألف من ثمانين مغنية شابة جميلة أو محظية ، ومائة وعشرين جواداً . فلما علم « كنفوشيوس » بطبيعة هذه الهدية ، أمر بأن تبقى المجموعة كلها خارج العاصمة . ولكن لسوء الحظ ، حدث أن واحداً من موظفي بلاط الدوق ، وقد تسلل إلى خارج العاصمة ليستكشف

أمرها ، عاد وهو يروى رواية براقعة عما شاهدته . ويرغم معارضات «كنفوشيوس» ، استسلم الدوق للإغراء ، ونُقلت الفتيات إلى الحرم الملكي ، واستؤنفت الاحتفالات التي كانت قد نُسيت منذ عهد طويل ، وتوقفت الأعمال العامة بما فيها الأضحيان الدينية . ولما وجد «كنفوشيوس» أنه قد تنوسى وأنه قد حُطَّ من قدره ، ووجد أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، اختار أكرم طريق للإغراب عن استيائه ، وهو أن يعود مرة أخرى لحياة النقي . وكان تعليقه على هذا الفشل تعليقاً بارعاً إذ قال : « لم ألتق قط بإنسان يعشق الفضيلة بقدر عشقه للجمال » .

ودام تجواله لما لا يقل عن ثلاثة عشر عاماً . لقد قرر بادئ ذي بدء أن يزور ولاية واى Wei حيث أحس بأنه يمكن أن يعتمد على الأقل على ضيافة صهره ، فرحب به الدوق ، وكان يدعى « لنج Ling » رحب به في بادئ الأمر ترحيباً ينم عن احترام زائد ، وهو لم يخفت « بكنفوشيوس » فحسب ، كاحتفاء « ديونيسيوس السراقوصي Dionysius of Syracuse » الشاب بأفلاطون ، بل منحه أيضاً معاشاً مادياً عينياً . وبالرغم من هذا كان عليه أن يعاني من نفس ما عانى منه أفلاطون نفسه وهو كشف الخداع . وفي مجال المعرفة ، برهن « لنج » على أنه أكثر سفاهة من « تنج » . ومرة أخرى ، عزم « كنفوشيوس » على الرحيل ، ولكنه واجه مخاطر في الطريق مما أجبره على العودة برغم أنه إلى « واى » . وكان واضحاً أن البلاط لم يكن في وضع يساعد على الترحيب بعودته لأن زوجة الدوق ، وكانت تدعى « وان - تزو Wan-Tzu » ، كانت ذات شخصية لعوب ، وكثيراً ما عارضت في وجوده . لقد كان هناك يوماً ما تمثال في باريس للملك لويس الخامس عشر King Louis XV يمتطي جواداً تحيط به صور أربع فضائل ، وكان المثل الشعبي يقول : « تسير الفضائل على الأرض وتمتطي الرذيلة جواداً^(٥) » فلما قاد « كنفوشيوس » عربته خلف عربة « وان - تزو » كان تعليق الشعب تعليقاً مماثلاً : « الشهوة في المقدمة والفضيلة خلفها »^(٦) . وبأسرع ما يمكنه ، غادر « كنفوشيوس » الولاية مرة أخرى .

وفي صحبة تلميذه الوفي « تزي - كونج Tze-Kung » مر الفيلسوف ، الذي أصبح الآن طاعناً في السن ، بأعنف خبراته طهوراً . ولما كان قد تعرض لسخرية كلا الناس المحبرين ومن ادعوا بأنهم بالغوا الاهتمام بالأمور الأخروية ، وجد نفسه يميل إلى اعتبار الناس أعداء

“Les Vertus sont à pied, le Vice est à cheval”

(٥) النص الفرنسي هو :

“Lust in front, virtue behind”

(٦) النص الإنجليزي المترجم عن الصينية هو .

لدودين . لقد هبط من أسمي مركز نقله إلى موقف طريد العدالة ، إلى أضحوكة ، إلى هدف لكل إساءة ، وفي مناسبة واحدة على الأقل كان هدفاً للعتف ، لأنه كاد ينجح أخ لأحد تلاميذه في قتل مجموعة حواريه الصغيرة مرة واحدة بأن أسقط شجرة في طريقهم . وبالرغم من أنه لم يُصَبَّ أحد ، فلقد كانت هذه الفعلة كافية لتفريق شمل تلاميذه الفرعين ، وما لبثت أن جاءت فترة كان يتجول فيها « كنفوشيوس » وحده . ولقد حدث أن سألت « تزي - كونج » بعض الفلاحين هل شاهدوا « المعلم » كان الجواب أن قد شوهد قريباً من المكان ، رجل عجوز « تعس ككلب ضال » . ولما أحيط « كنفوشيوس » علماً بهذا الوصف ، ضحكك ملء شديقه وقال : « إنه أحسن وصف » . ويبدو أن « كنفوشيوس » كان لا يتخلى طوال حياته عن فكاهة ساخرة .

ومع الكثير من الإخفاق والصدمات ، فإنه من العجيب أن « كنفوشيوس » لم يئس من أن يجعل نفسه دائماً ذا فائدة لمواطنيه ، ولكنه لم يفقد أملاً قط . لقد أعلن مرة : « لو وظفني أي أمير من الأمراء عنده لعلتُ شيئاً جديراً بالاعتبار في مدى اثني عشر شهراً ، ولبلغت الحكومة درجة الكمال في مدى ثلاث سنوات » . كان دائماً على استعداد لأن يضع خدماته تحت تصرف أي شخص يطلبها ، ولكنه رفض قبول أية عروض قد تتضمن الإضرار بمبادئه ، ولذلك فإنه بالرغم من أن الدوق « لنج » ، دوق ولاية « واي » دعاه عدة مرات للعودة إلى الولاية ، لم يتقبل « كنفوشيوس » أي مركز مرموق في بلاطه . لقد كانت الرقابة المطلقة أو النني المطلق هما القطبان اللذان استمرت حياته العامة في التنقل بينها . ولا يمكننا أن نلوم تلاميذه في فقدهم الثقة في معلمهم بين الحين والآخر خاصة تحت قرح أو تعنيف المعتدين والنسك الذين كانوا كثيراً ما يلتقون بهم في طريق تنقلاتهم . فلقد قال ناسك طاعن في السن لـ « تزو - لو » : « أليس أفضل من اتباع رجل يهجر هذه الولاية وتلك ، أن تتبعوا من ينسحبون من العالم بأسره ؟ » قد تبدو نصيحة معقولة ، ولكن في نظر « كنفوشيوس » إن يأس وقنوط البشر لا يزال أعظم الخطايا ، كما أنه لم يخالجه شعور بأن حياته المتقلة كانت كلها بلا فائدة . والعالم اليوم يعرفه على أنه حكيم له شخصية وعزيمة جديرتان بالاعتبار ، كان في استطاعة الحكومات أن تنفيه ولكن لم يكن في استطاعتها أن تسكنه ، وكان تبتذ الأمر له تأنيباً صريحاً لعناد البشر . ولقد كان مواطنو « كنفوشيوس » يجهلون أن شخصية على درجة ماثلة من الحكمة كانت تلقى معاملة أسوأ من المعاملة التي كان يلقاها « كنفوشيوس » ، في مدينة أئينا المستقلة ، كانت هذه

الشخصية هي شخصية «سقراط» ، الذى لم يسند إليه منصب عام ، اللهم إلا فترة قصيرة ، ولكنه عند محاكمته طالب بحقه كرجل حكيم له مشاعر عامة ، فى أن يعوله الشعب . فأودع السجن شهراً ، ليكون عبرة ، ثم اقتصاداً فى نفقات إقامته ، دسوا له السم .

الاعتراف به والتقاعد :

برغم ما اشتهر به الشرق من فظاظة ، فإنه كان يميل إلى أن يكون أقل عنفاً مع قديسيه وحكامه ، من الغرب ، الذى يكاد يكون سيجِّله أسود فى هذا المجال . ولقد كان أعظم المستبدين الشرقيين جنوباً بالسلطة يكفون أيديهم عندما يواجههم قديس . ولقد أبقى «كروسس Croesus» على حياة قلة من منافسيه ، بل أبقى على حياة «سولون Solon» كما أبقى «بنخنصر Nebuchadnezzar» على حياة «إرميا Jeremiah» ، فى حين لقي «سقراط» حتفه على أيدي مَنْ يدين العالم الغربى لهم بأعظم المثل الثقافية ، كما صُلب المسيح على يد مَنْ ندين لهم بأسمى مفاهيم القانون . وكثير من البطاغة المحليين فى الصين كانوا ينظرون إلى «كنفوشيوس» على أنه خطر يهدد نفوذهم أو عقبة تعوق استمتاعهم بمساوى الظلم والاستبداد ، ولكن لم يكن يجرؤ أى حاكم أن يلقي القبض عليه أو أن يقطع رأسه ، بالرغم من أن الوزراء الحقودين كثيراً ما حاولوا أن يعرضوه للسخرية ؟ ومع ذلك ، فقد حظى «كنفوشيوس» فى النهاية بقدر من الاعتراف به ، كان أكثره أثراً ذلك التقدير الذى لقيه من الولاية التى كانت مسقط رأسه ، ولاية «لو Lu» فلقد ضاق الدوق «تنج» ذرعاً ، منذ أمد طويل ، بالفتيات الراقصات ، وغير ذلك من مظاهر الأبهة ، وآل العرش من بعده إلى الدوق «جاي Gae» . فبعث الأخير إلى الفيلسوف الذى كان فى التاسعة والستين من عمره ، ببعض الهدايا وبدعوة للعودة إلى ولايته . اشتدت غبطة «كنفوشيوس» ، ولكنه أوضح فى قبوله للدعوة أن أيام قوته قد ولت وأنه سيقدّم النصيح ويدرس ويستريح . ومن أرادوا أن ينصتوا له يمكنهم أن يفعلوا ذلك . لقد كان إنساناً مُتعباً ، فضلاً عن أنه كان متقاعداً .

لقد تمتع بنحس سنوات من حياة المجد والبحث فى «لو» قبل وفاته ، وكان الوزراء يستشيرونه ولكنهم لم يسعوا لإقلاق راحته . لقد كان قادراً عندئذ على أن يقوم بعمل أرجى طويلاً حتى كاد يفقد الأمل فى تحقيقه ، أعنى تحرير كتابه الشهير «الكلاسيكيات Classics» كما أنه كرس وقته لكتابة تاريخ شعبه وإعادة تصنيف القصائد التقليدية وإعادة ترتيب موسيقى الاحتفالات الرسمية .

وذات صباح ، شوهد الرجل العجوز ، وكان قد بلغ وقتها الثالثة والسبعين ، وهو ينهض من متكته بصعوبة أكثر من المعتاد ، ويمشي متثاقلاً خارجاً من داره ، وهو يتغنى بأغنية حزينة ، وكانت الكلمات كلمات قصيدة يوليها محبة خاصة ، ولكن تلاميذه توقعوا في هذه الحالة معنى تشاؤمياً فيها ، وكانت كلمات الأغنية التي تغنى بها هي :

« لابد للجبل العظيم من أن ينهدم ،

ولابد للدعامة القوية من أن تتكسر ،

ولابد للرجل الحكيم من أن يذبل كما يذبل النبات . » .

ثم أعطى بعض التوجيهات عن كيفية دفن جسده ، وكان حريصاً على تحديد الطقوس التي يجب أن تصاحب جنازته . أما عن أن عقله لابد وأنه كان يسهب في تفاصيل الاحتفالات الرسمية ، فقد كان أمراً تميز به ، ولكن كلماته الأخيرة لتلاميذه ، كانت هي أن ينتهجوا رسالته ، ولعله كان يتحدث بالصيغة التي كان يتحدث بها « الأنبياء » في كل عصر : « لن يظهر حاكم ذكي ، ليس هناك واحد في الإمبراطورية سيتخذني معلماً له . لقد حان أجلي لأموت . » . وعاد إلى متكته ، ووقد فيه لمدة أسبوع ، ثم مات دون أن يتفوه بكلمة أخرى ، فدفنه تلاميذه منفذين تعليماته بكل دقة ، وبنوا أكواخاً صغيرة بالقرب من مقبرته ، وقد أعدوا العدة ليحزنوا على وفاقه لعدة سنوات . ولقد قيل إن « تزي - كونج » وكان أشد أتباعه تعلقاً به ، بقى في البقعة التي دفن فيها « كنفوشيوس » لمدة بلغت ست سنوات . وقد بلغ حفدة « كنفوشيوس » ، بمضى الوقت ، شأناً عظيماً ، وتقلدوا مناصب الدوقات ، وما زالت عائلته تعيش في رغد من العيش في الصين حتى اليوم .

ونستطيع أن نعرف القدر الكبير عن « كنفوشيوس » ، الرجل ، من أقواله المسجلة في كتاب « المقتطفات الأدبية Analects » ، وهذه الأقوال سديدة ، حازمة ، وأحياناً تهكمية في أبسط صورة ، ولم تكن عاطفية قط . أما عن أنه كان يُظهر عطفاً شديداً على معاناة البشرية ، فهذا مانع عنه ، ولكن كان أحسن ما يوجبه هو أن يعبر عن عواطفه تعبيراً عملياً ، إذ لما عانى واحد من أصدقائه من خسارة شخصية ، أمر بأن يُحَلّ وثاق جواد من جواد عربته ويُهدى إلى الأسرة الحزينة ، وقال مفسراً : « إنني أكره فكرة ألا تكون دموعي يعقبها تعاطف عملي . » . كان ذلك هو موقفه الطبيعي . ومن مختلف الأوصاف التي وصلتنا عنه ، وكذلك من الصورة الجليلة في

المعبد الذى شُيِّد فى مسقط رأسه ، يمكننا أن نقرر أنه كان قوى العقل والجسد معاً . والواقع أنه ، مامن رجل له ضعف بنيته أو ضعف عزيمته كان فى استطاعته أن يحتمل محن فترات نفيه العديدة . لقد كان تحولاً غريباً للقدر أن الفيلسوف الشديد التمسك بأفكار السلوك العام وحسن الصورة والسماحة الاجتماعية ، يضطر لأن يقضى الجانب الأكبر من حياته فى البرية مجرداً من المؤثرات الحضارية ، ويُحكَم عليه بأنه شخص انزاعى ، يرجو بلا جدوى أن يوظف لأى غرض من الأغراض . ولعله من سخرية القدر أيضاً ، ذكر حقيقة أن « لاو - ترى » الذى كان مشهوراً عنه أنه كان يزدرى الحياة المدنية ، كان يعيش ، عندما التقى به « كنفوشيوس » ، فى مدينة من أكبر مدن الصين . ولقد اتهم « كنفوشيوس » ، بالرغم من شهادة أصدقائه به ، بالأثرة المتعالية *Overweening Egoism* . ولا شك أنه قد تفوه ببعض عبارات ، إن لم تكن فيها أثره تماماً ، فإنه لا يرقى أذى شك فى أنها تحمل معنى التواضع . لقد قال فى مناسبة من المناسبات : « فى قرية صغيرة فيها عشر أسر قد يوجد واحد شريف ومخلص مثلى ، ولكن ليس شديد الولع بالعلم مثلى » وأكثر ما اشتهر عنه قوله : « فى سن الخامسة عشرة قررت أن أعرف الحكمة ، وفى سن الثلاثين ، اتخذت موقفاً حازماً ، وفى سن الأربعين كنتُ لا أزال سهل الانقياد ، وفى سن السبعين كان فى استطاعتي أن أتبع رغبات قلبي دون أن أتجاوز الصواب » . ويمكننا فقط أن نؤكد أنه إذا كان إنسان ما قد بلغ فى الواقع مثل هذه الدرجة من الكمال فإنه يحق له أن يقول هذا . واليوم هناك حوالى ٥٥٠ مليون يؤمنون بأنه كان على حق .

الكلاسيكيات "Classics" : The

تعرف المؤلفات التى تناولت القوانين الكنسية للعقيدة الكنفوشيوسية - لأننا يمكن أن ندعوها كذلك بحق - تعرف باسم الكلاسيكيات التسع ، خمس منها المسماة خماسيات تشنج *The Five Ching* ، من المحتمل أن تكون تأليفه هو نفسه ، سواء بمقدرته كمؤلف أو كمحرر ، وهى تتألف من : «لى - تشى *Li-Chi* » أو كتاب الشعائر *Book of Rites* ، وهو جامع لقواعد الموائمة ، مخطط لتلقين السلوك الروحى فضلاً عن السلوك الطبيعى . والثانى تعليق على الكتاب الخطير الذى سبق أن أشرنا إليه ، أعنى « آى - تشنج *I-Ching* » أو كتاب التغيرات *Book of Changes* ، والثالث كتاب « شى - تشنج *Shi-Ching* » أو كتاب القصائد *Book of Odes* ، قطعة أخرى من عمل المحرر : هذه القصائد

برغم جمالها في ذاتها كانت ذات هدف تهذيبي واضح . والرابع والخامس ، كتاب « تشون تشيو chun chiu » أو تأريخات الربيع والخريف « Spring and Autumn Annals » وكتاب « شو - تشنج Shu-Ching » أو كتاب التاريخ « Book of History » وقد تناول ماضى ولاية « لو Lu » والإمبراطورية الصينية ، على اعتبار أنها تسجيل ملهم البطولة والنظام ، ومن ثم كان داحضاً لما نسب إليها من فوضى . ويكفى هذا بالنسبة للعمل المباشر الذى قام به « كنفوشوس » . أما عن الكلاسيكيات الأربع الباقية ، فهى مؤلفات ، بالرغم من أنها بوحى من « المعلم » ، إلا أنه قد دونها تلاميذه ، بقدر ما وصل إلينا . وأشهر هذه المؤلفات الأربعة طُرأهى : المقتطفات الأدبية Analects (أو « شذرات Fragments ») التى سبق أن أشرنا إليها . وهذه الأقوال الماثورة ، تحمل طابع شخصية وحيدة ، ومن المحتمل أن تكون سجلاً دقيقاً لما قاله « المعلم » كما تذكر ذلك مذكرات بوزويل « Notes of Boswell .. » والكتاب التالى ، الذى عنوانه « تا - هسوه Ta-Hsueh » أو العلم العظيم The Great Learning والذى يعتبره كثيرون من طلاب العلم أوضح ملخص للعقيدة الكنفوشوسية ، فإنه من المحتمل أن تكون أجزاء منه ، فعلاً ، قد كتبها « كنفوشوس » بنفسه . ويعتبر حفيد الحكيم ، المدعو « كونج تشى Kung Chi » مؤلف الكتاب الثالث الذى عنوانه « تشونج يونج The Chung Yung » أو مبدأ القصد الثابت Doctrine of the Steadfast Mean أما الكتاب الأخير فهو كتاب منشوس Book of Mencius الذى لُقّب بأعظم تلميذ من تلاميذ « كنفوشوس » .

وفي كتاب « العلم العظيم » ترجع الأخلاق ، الكنفوشوسية إلى أصولها المجردة . ومن المحتمل أن تكون هناك حكمة أكثر تركيزاً ، وصدقاً أكثر ثباتاً ، في هذا المؤلف الخطير عما يوجد في أى مؤلف فلسفى آخر ، حتى لو كان حكمة من نوع دنيوى . ولربما استبعده « لاو - تى » على اعتبار أنه حماقة ، وقد يكون ذلك صحيحاً فيما يتصل بعنوانه الجريء يقول الكتاب « للأشياء أصولها وفروعها ، وللأمور نهايتها وبدايتها ، وفي معرفة ما هو الأول وما هو الأخير سيقتود المرء إلى الاقتراب مما يُعلّم في كتاب « العلم العظيم » . ونحاط علماً بعد ذلك كيف أن القدماء شرعوا في تنظيم ممالكهم وفقاً للفضيلة . ولتحقيق راحة الجماهير اكتشفوا أن من واجبيهم أولاً ، أن يكونوا قدوة صالحة في حياتهم الأسرية ، وقد أدى هذا بهم ، بدوره ، إلى نوع من البحث والإستقصاء في نفوسهم الذاتية ، بالغين الذروة في إدراك أنهم يجب أن يتوسعوا حتى

يصلوا إلى أقصى درجة لديهم من المعرفة حتى تتغلغل في قلب « الواقع » أو « طبيعة الأشياء » .
بمعنى آخر ، الحكم الصالح لا يمكن بلوغه عن طريق فرض تعليمات خارجية ؛ بل على العكس من ذلك ، يمكن بلوغه فقط عن طريق كل فرد ، الحاكم فضلا عن المحكوم ، مشتركين في التهذيب الذاتي طبقاً للقانون الطبيعي للحياة . قد يقول بعضهم : طموح غامض ، لأنه ما هو عمل هذا القانون الطبيعي للحياة ؟ هذا السؤال كان كنفوشيوس أكثر إحجاماً عن الإجابة عنه عن « لاو - تزي » الذي قال إن القانون هو « الطاو » أو عن « هسن - تزي - Hsun-Tze » الذي قال إنه لا وجود لمثل هذا القانون ، بيد أن « كنفوشيوس » ، عندما أصطر للإجابة عن هذا السؤال قال بما لا يدع مجالاً للشك في ذهن أي إنسان إنه على شاكلة العظماء الذين سبقوه ، وأنه كان رسولاً للرابطة المقدسة : « إنني أسعى إلى الوحدة ، لتسود الجميع » ، ذكرها مرة في حديث بدون مناسبة عن لاشيء ، وإن كانت في الواقع عن كل شيء . والواقعية التي تحدث عنها لم تكن أقل واقعية لكونها بعيدة عن منال غالبية البشر . يجب أن نتذكر أنه ، طبقاً لاعترافه الشخصي عندما كان في سن الخمسين من عمره لم يكن قد فهم بعد « قوانين السماء » .

ولو فتحنا كتاباً مدرسياً حديثاً عن الأخلاق (ومن المؤكد أنه لن يكون أي فرد على استعداد لأن يفتحه مالم يكن مضطراً لأن يجتاز اختباراً) لوجد أن الإنسان نفسه في عالم مختلف تمام الاختلاف عن العالم الذي عاش فيه الحكماء العظام . ففي المقام الأول ، معظم الكتب المدرسية من هذا النوع تتناول بصورة خاصة بحثاً في معنى عبارات مثل الصواب والخير والواجب . . إلخ : متظاهرة بنوع من التغافل الأكاديمي لما يمكن أن تحمله هذه الأفكار في الواقع ، وكثيراً ماتصل بالفعل إلى لا نتيجة على الإطلاق . لقد صار مفهوم السلوك البشري كمفهوم له علاقة بطريقة ما بالعالم الذي يعيش فيه الإنسان ، فعل فاضل ذلك الذي يتناسق مع غرض من الأغراض المقدسة ، قد صار مغايراً تماماً للعقل الأكاديمي الغربي حتى إنه ليبدو بعيداً عن الصواب ، ومع ذلك ، فمثل هذه هي رسالة كل زعماء البشرية الروحانيين ، بالرغم من صعوبة فك طلاسمها أحياناً ، كما يبدو أن الحضارات السابقة لم تهب المرء هذا الوضع مالم يف بما عاهد بإتاحة مثل هذا التنور . وكانت آخر شخصية أخلاقية عظيمة بعد سبينوزا Spinoza تبشر بنوع من العالمية في الأخلاق هي شخصية « كانط » ، ولكن عبارة كانط التي تقول إننا يجب أن « نعمل حتى يصير المثل الأعلى لسلوكنا قانوناً عالمياً » ، إجراء

تجريدى شاحب ، ذاع وانتشر دون الإشارة إلى غرض الطبيعة والعالم الذى يسمو على الطبيعة^(٧) . لقد علّق « كنفوشوس » تعليقاً مماثلاً تماماً لتعليق « كانط » إذ قال : « يتصرف الإنسان الأسمى لكى يجعل سلوكه فى كل الأجيال قانوناً عالمياً » ولكنه تفوه بهذه الحكمة ضد خلفية الحكمة التقليدية التى كان يعمل جاهداً لإبقائها حية . ولم يكن عبثاً أن أنفق السنوات الأخيرة من حياته فى دراسة أقدم عمل من أعمال الفكر الصينى الميتافيزيقي ، وهو كتاب التغيرات . وكتاب « آى - تشنج » كما سبق أن رأينا ، هو مؤلف عن « قوانين السماء » ، وإذا كانت هذه القوانين ، كما هى مفسرة ، تبدو غامضة ، فإنه لم يدع أحد قبل أو منذ ذلك الوقت أنها غير ذلك . وما هو مهم هو الاعتراف بعدم توقف عملها وإن كان غير مدرك . وكما نقرأ فى كتاب « مبدأ القصد الثابت^(٨) » ، فإن مامنحته السماء هو ما يسمى « الطبيعة » . والمطابقة على هذه الطبيعة يدعى « طريق الواجب » . ويعلم الموضوع عن طريق التكرار حتى يتخذ مظهراً من مظاهر الابتذال Platitute ولكن فى الواقع أنها الحقيقة التى يحسب لها حساب فوق كل ماعداها . « لو نشرتها للمآت الكون ولو طويتها لارتدت ورددت مخبئة فى الخفاء » . والابتذال حقيقة ترتضى البشرية أن تطويها وتخفيها . والابتذال نتيجة وفاق بين القصور الذاتى البشرى Human Inertia وبين التعبير بالكلمات Verbalism .

التوافق والاعتدال :

على شاكلة البوذا الذى برهنت عقيدته على أنها أقوى منافس لمبدأ السلوك العام Decorum والاعتدال Mean ، كان « كنفوشوس » على دراية بضرورة التوافق لدرجة بلغت المغالاة فى التبسيط . لقد كان يبشر عامة الشعب بمبدأ يمكن أن يُدرك دون الرجوع إلى الحيل الفلسفية . لقد سمح لقصور معظم الأشخاص : تفهم الحقائق التى هى خارج نطاق خبرتهم المباشرة . « لو أن المرء فى تكريسه نفسه ، فى جدية ، لواجبات الناس ، وفى احترامه للكائنات الروحية ، حرص على الابتعاد عنها - لكانت هذه هى الحكمة . » . وإنما لكذلك فى الواقع ،

(٧) ربما يرغب القارئ فى تعديل هذه الملاحظة ، إلى حد ما ، على ضوء إشارتنا إلى « كانط » فى فقرة عن « شانكارا » بالفصل السادس من هذا الكتاب .

(٨) ترجم إيرزا باوند Erza Pound اسم هذا الكتاب ترجمة أكثر وضوحاً فى هذه العبارة : « مبدأ المحور الثابت . The Doctrine of the unwobbling Pivor »

لو أخذت في اعتبارك قدر البشرية . وبنفس هدف الحفاظ على المدى الطبيعي للخبرة ، أكد «كنفوشيوس» أهمية فضيلة التضامن الأسرى Family Solidarity وبصورة خاصة طاعة الأبناء . لقد رأى في الأسرة : الوحدة الطبيعية لكلا النظام والاستمرار ، إذ فيها تصبح الفضيلة ثابتة ويصبح الواجب حقيقة : وصاحب النظرية التجريدية قد يختزل الأخلاق إلى بضع قوانين مناسبة : إذ تستمر الإنسانية بوجه عام في احترام تعاليم الحكماء ، حتى لو كانت أقرب إلى قطع العلاقات الودية منها إلى مراعاتها . لقد تغلغلت التعاليم الكنفوشيوسية بعمق في العقلية الصينية حتى اضطرت كل ماعداها من مبادئ ، بنوع من التهمك والسخرية ، إلى التوافق معها . وعندما يتحدث المؤرخون وواضعو القانون الدولي عن العبث في محاولة قهر أو إذلال الشعب الصيني ، يبدو أنهم يأخذون في اعتبارهم أحياناً مجرد اتساع رقعة البلاد . والاستراتيجيون في حديثهم عن علم ، عن «الخطوط الطويلة للاتصال» يظنون أنهم بهذا قد سواوا الأمر ، ولكن صعوبة «قهر» شعب كالصينيين (إذا كانت فكرة القهر لا تزال تحتفظ بأى معنى) هي صعوبة تحطيم قوة الأخلاق المتأصلة بعمق والتي تكاد تكون لا شعورية . «والخطوط الطويلة للاتصال» التي تلعب دوراً حيوياً في مثل هذه العملية هي وسائل الاتصال التي انتقل عن طريقها مبدأ واقعي عن المسؤولية الاجتماعية على مدى ألفين وخمسمائة سنة . حطّم ذلك ، وستكون قد حققت نصراً لا مثيل له في التاريخ ، ولكن مع ذلك ، علينا أن نرى ما إذا لم تكن قد حطّمتك بعد ، في اللحظة التي تبدو فيها «مسالمتك» أو «اشتراكتك» تامة .

بعد وفاة «كنفوشيوس» ، حققت تعاليمه نجاحاً يفوق التوقعات المتواضعة التي كان يتوقعها مؤسسها . ياله من نجاح عظيم يمكن أن يكون خير شاهد تشهدده أعنف حركات المعارضة . ولما أخذت مبادئ «الاعتدال» و«الحكمة الذهبية» (عامل الناس بمثل ماتحب أن يعاملوك به) والمثل الأعلى لطاعة الأبناء ، تتغلغل في وعي عامة الشعب ، مالبت أن تشكلت بالتدرج أريستوقراطية جديدة من طلاب العلم الكنفوشيوسيين . ولم يكن طلاب العلم هؤلاء ، بالضرورة رجالاً متقاعدین أو لهم نزعة أشبه بالنسك : لقد كان دائماً ماثلاً أمامهم المثل الأعلى للملك الفيلسوف أو بالأحرى ، الحكيم المثقف . وبالمثل ، فإنه مثلاً أسس «المعلم» مدرسة ، سار على هذا النهج رجال من ذوى الشعور العام في جميع أرجاء البلاد ، مثل هذه المدارس ، بالرغم من أنها كانت كثيراً ماتخفّض العلوم الحية إلى أنماط شكلية بصورة غير معقولة ، إلا أنها

أبقت على الفن والتعلم ، ومن ثم ، الحضارة ، عبر قرون من الفوضى والإهمال ، لأن الحضارة ، التي تكون في أى وقت على الإطلاق مطلباً عاماً عظيماً ، مجبرة في حقب مختلفة على أن تعرب عن رضاها عن تعليم ذاتها بذاتها ، تماماً مثلما كان «كنفوشيوس» المنفى يُبقي على روحه المعنوية بترديد القصائد من أجل تسليته الخاصة ، كما كان يعزف على العود أيضاً . . . وفي الوقت الذى اتبع فيه عدد من الحكام مبدأ كنفوشيوسياً اعتبارياً على أنه العقيدة الرسمية لولايتهم ، إذ بغيرهم ، على شاكلة دوق «تنج» الشديد الحساسية قد تحلوا من التزامهم بأن يجعلوا من انفسهم قدوة حسنة وفاضلة لرعاياهم . لقد اکتفوا بأن يعلنوا قوانين صارمة ويعملوا على تنفيذها بالقوة على الآخرين . ورغبة من الإمبراطور «شيه هوانج» - في Shih Huang-Ti (٢٢١ - ٢١١ ق . م .) في إيضاح أن التاريخ بدأ به هو نفسه ، واستنكاراً منه لتأثره بمبادئ «كنفوشيوس» (فضلاً عن كل المبادئ الأخرى) أمر بإقامة «حريق ضخم للكتب» وكان الإجراء رمزياً إلى حد بعيد ، كمحاولة للتخريب العلمى ، ولكنها كانت بلاجدوى من ورائها ، إذ أن كثيراً من طالبى العلم كانوا يحفظون كتب «كنفوشيوس» عن ظهر قلب . أما غيرهم ، وكانوا يعملهم يعرضون أنفسهم لخطر جسيم ، فقد أخفوا مجموعة ورق الخيزران الممزق تحديداً منهم لهذا العهد وانتظاراً لعهد يكون أكثر تنوراً . وبعد أن حكم «شيه هوانج» - في «لفترة قصيرة ، خلفه ، - لحسن الحظ - حاكم عادل كان ينتظره طلاب العلم وهو «ووتى Wu Ti» وكرد فعل ، أعلن «ووتى» في سنة ١٣٦ ق . م . أن المذهب الكنفوشيوسى هو دين الدولة الرسمى ، وبهذا ارتفعت مكانة «المعلم» إلى درجة القدسية .

وبمضى الزمن ، أخذت الكنفوشيوسية في الانتشار في الأقطار الأخرى ، ثم مارست الطاوية والبوذية من بعدها نفوذاً عميقاً على العقل الصينى ، ولكن في الوقت الذى طردت فيه البوذية من الهند على يد مبدأ أكثر عداء ، فإن انتشارها في أرجاء الصين لم يُضعف بنفس القدر شوكة الكنفوشيوسية ، التى برهنت على أنها فلسفة أكثر «طبيعية» وأكثر تجانساً ، ومن الصعب اجتثاثها ، وأنها ستدوم أكثر من أية عقيدة تسعى إلى التآصل في أذهان ذلك الشعب الذى هو أكثر تمسكاً بالأخلاق لأنه كنفوشيوسى قبل كل شىء .

الحكمة الأصيلة والزائفة :

إن دراسة مركزة للفلسفة الهندية والصينية قد تؤدي بالمرء ، لو نظر إليها خارج نطاق سردها

التاريخي ، إلى افتراض أن هندوستان والمملكة الوسطى^(٩) قد احتشدتا بصغار الأمراء ويطن حولهم الفلاسفة كما لو كانوا ذباب الدواب ، ساعين للتأثير في أمور الدولة ، مقدمين نصائح بلا مقابل ، ولا يضيعون أية فرصة لتقديم أية موعظة وأى تحذير . ويحتاج الانطباع إلى أن يُصحَّح بالتفكير في حجم البلاد ، وانعدام المواصلات ، والمجالات الصغيرة نسبياً التي يمكن أن يمارس فيها الحكم الفعال . ومع ذلك ، فلو هيئت لنا مثل هذه الظروف ، فلن تكون لنا حيلة من أن تصدمنا مرة أخرى حقيقة ، تخالف حقيقة أزممتنا ، هي أن خمسة القرون السابقة لمولد المسيح عليه السلام قد شهدت ظهور فلسفات عالمية أكثر مما شهدته كافة السنوات التي أعقبت ميلاده . وفي كتاب صدر مؤخراً ، حاول البروفسور كارل جاسبرز Prof Karl Jaspers أن يوضح أن المعاصرة Contemporaneity إذا استخدمنا هذه العبارة بتوسع إلى حد ما ، بين شخصيات أمثال « بوذا » و« كنفوشيوس » و« لاو - نزي » و« زارادشت » و« أشعيا الثاني » ، لتشير إلى حركة فكرية عامة لها علاقتها في أرجاء العالم الشرق . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن مثل هذه الحركة لم تتكرر قط ، ولا يحتمل قط أن تفسر . وهناك احتمال واحد فقط ، من ناحية أخرى ، جعلته دراسة ما قبل التاريخ أكثر معقولة عما كان يعتبر منذ قرن مضى . أعني أن العالم القديم ربما كان أقل عزلة مما نفترضه أحياناً . وقد يكون السفر صعباً ، عرضة للمخاطر ، وفوق كل ذلك بطيئاً ، ولكن المسافات الشاسعة كان يغطيها كلا الأفراد والجماعات . وربما كان البطء ميزة ، والسفر العصري سريع جداً ، وفضلاً عن هذا ، فلقد كانت الرحلة الطويلة شيئاً يمكن تحقيقه على مراحل . لقد كانت تصل إلى ما يدعو للإقامة في سلسلة من المحطات على طول الطريق لم يكن قد سبق تحديدها من قبل دائماً . لم تكن الرحلة تشمل أكثر من تركك لدارك ونقلك له ، أو على الأقل ، إقامة مقار جديدة ولم تكن هذه المقار المؤقتة بالضرورة مؤقتة كخيام قبيلة من قبائل البدو ، فكثير من القصور التي بناها الصليبيون في أرجاء الشرق الأوسط ، إذا أخذنا نموذجاً متأخراً من التاريخ الأوربي ، هي صالحة لآلاف سنين أخرى إذا استبعدنا احتمال التخريب العمدي . « وقهر المسافة » - وهو انتصار لا يبلغ عمره في القدم قرنين من الزمان - ربما شهد من وجهة نظر سيكولوجية تأثيراً أقل ، على جمع شمل الرجل الصالح والأفكار الصالحة مما كان يروجوه رواد النقل والطيران

(٩) اعني تشونج كيو Chung-kuo وكانت الصين يطلق عليها أحياناً اسم تشونج - هوا -

كيو Chung-hwa-kuo أو المملكة الزهرية الوسطى . Middle Flowery Kingdom

ورسل التجارة الحرة أمثال كوبدن Cobden. وإن ماقهرته المسافة لم يكن جهلاً بل تفكيراً ناضجاً ، تماماً مثلما أن اختراع الآلة الكاتبة قد قصد به أننا نكتب الآن ستة نسخ من خطاب بدلاً من نسخة واحدة . وباختصار ، فلعل السفر في العصر السابق لعصر الصناعة كانت له فاعليته لجهاز إرسال في الفضاء مثلما كان التراث الشفوي حافظاً فعالاً للحضارة في زمنه . ويستتبع هذا أنه إذا كان تأثير الفلاسفة الفرديين مغالى فيه أحياناً ، فإننا يجب ألا ننع في الخطأ المضاد ، خطأ الحط من قدر مثل هذا التأثير . نحن نعلم أنه في الهند والصين كانت الفلسفة تستحق الاعتبار ، وكان لها احترامها ، لأنه كان ينفع الناس التظاهر بالمقدرة الفلسفية حتى لو لم يوهبوا ، اللهم إلا في صورة زائفة جداً . وبالرغم من أن الحكام العصريين ، خاصة في أزمنة الحرب ، قد يستشيرون أحياناً السيكولوجيين فإنه لم يعرف عن حاكم غربي قط أنه قد وضع نفسه تحت وصاية فيلسوف عظيم . والولع الحديث بالإدارة الذي ينتج عنه تكوين لجان المستشارين في المسائل الفنية ، قد أخفى تماماً المسألة التي هي أساسية أكثر ، لما ينبغي أن تكون عليه الحكومة الصالحة . وفي القرون التي أعقبت وفاة «كنفوشيوس» ، كان المجتمع الصيني أكثر تأثراً برجال يمثّلون في مناهجهم السفسطائيين الإغريق ، من يسمون بالجدليين وبالمنطقيين (وكانت مدارسهم تسمى على التوالي : «بين تشي Pien Che» و«منج تشيا Ming Chia») ولم يكن هؤلاء الرجال جميعهم دجالين بالضرورة كما أن رجال الإعلان العصريين عندنا ليسوا جميعهم كاذبين ؛ ولكن لما كانوا قد أقاموا من أنفسهم مُصدِّرين للحكمة وخبراء في الجدل ، كانوا مضطرين للدعاء بالعلم بكل الأمور Omniscience في حين أنهم ، لو كانوا زعماء روحيين أصليين ، لكانوا أول من دحضه وأنكره . وإذا ما أنت حولت الفلسفة مرة إلى عمل ، لتوقف هدفك عن أن يكون تعقّباً للحقيقة أو إنجازاً لحكمة ، وتصبح الفلسفة بالأحرى تمسكاً بالعادات والتقاليد . ومثل هذه الفلسفة التجارية تنهض دليلاً مقنعاً على الجهد الذي كانت تتمتع به الحكمة . والعالم الغربي يميل إلى أن يغدق على الرخاء رفعة شأن ماثلة بالرغم من احتجاج الكنائس الرقيق .

وكان من بين الحكماء الذين جذبتهم مدينة «لو-يانج Lo-Yang» بعض من كادوا يكونون أكثر امتثالاً للفكرة التقليدية للحكيم . لقد كان هناك رجال أمثال «موتى Mo Ti» (حوالي ٤٥٠ ق . م .) الذي نادى إلى جانب كونه عالماً من علماء المنطق ، بإنجيل للأخوة العالمية قائم على الاقتناع بأن الناس بطبيعتهم صالحون ، أما عن كسبه فقد قام الإمبراطور

« شيه هوانج - في Shih Huang-ti » بحرقها باعتبارها هدامة للحكم الصالح والسلطة الصالحة .
 أحرقها مع ما أحرقه من أعمال « كنفوشيوس » . وكان هناك « يانج تشو Yang Chu » (حوالي
 ٣٩٠ ق. م .) الذي كان معارضاً لكل من « كنفوشيوس » « ومو تي » ، وكان يعتقد أنه
 مادامت الحياة بطبيعتها شريرة ولا هدف لها ، فيجب أن نحاول أن نستخلص من الخبرة قدر ما
 نستطيع من البهجة دون مراعاة لشعور الغير . لقد كان جدله الذي شرحه بصورة أكثر صراحة
 عن ذى قبل ، هو أن « السمعة الطيب Good Name » التي يتحدث عنها السلوكيون :
 بدعة ، لمن يكون نفعها ؟ لمن خُلِّفت ؟ قد يكدر المرء ويضحى ويستغرق في الصوم
 والعبادة ، ويؤدى أعمالاً صالحة لاحتصر لها ، هذا طيب إلى هذا الحد ، وعندما يموت ، قد
 يبجل كما لو كان قديساً ، وقد يبدأ الناس في عبادته ، ولكن ماذا يفيد من كل هذه المداهنة
 بعد الموت ؟ فهو لا وجود له هناك لينعم به . يقول « يانج تشو » : « مثل هذه الشهرة ليست
 تلك التي قد يختارها الإنسان الذي يهيمه ما هو واقعي . كرمه - إنه لا يدري بذلك - كافته -
 إنه - لا يدري بذلك . لم تعد شهرته تساوى في نظره أكثر من جذع شجرة أو كتلة طين » ،
 ومن ناحية أخرى ، قد يكون هناك أناس ، قد أتبع لهم النفوذ وأتحت لهم الوسيلة ، يحيون
 حياة انغماس ذاتي متسبب . وبعد وفاتهم لا يلحق أسماءهم إلا اللعن والشتم ، ويصرون أنماطاً
 أو رموزاً على الطغيان والجشع والشهوة ، ولكن ما هي نتيجة مثل هذه السمعة السيئة عليهم ؟
 لا شيء بالمرة . « وجه إليهم اللوم - إنهم لا يدرون به . إن سمعتهم السيئة لا تساوى في نظرهم
 أكثر من جذع شجرة أو كتلة طين » . باختصار ، مادامت السمعة الطيبة والسيئة لأمعنى لها
 بدرجة متساوية ، فلا داعي لأن يشغل المرء نفسه في حياته بالفضيلة الأخلاقية . والواقعية
 الوحيدة هي تحقيق رغبة ، هنا والآن ، ولفرد واحد وحده .

منشيوس Mencius :

في رأى حكماء لهم إحساس أعمق بالمسئولية الأخلاقية ، كان مثل هذا الإنجيل يمثل خطراً
 داهماً على المجتمع . ومثل هذا المذهب المثالي الذي نادى به « مو تي » لا يمكن أن يطبق دون أن
 يؤدي إلى فوضى . إنه المبدأ الأخلاقي للمنادين بالوجودية الفردية * . وكان منشيوس أعظم

* هذه النظرية النظرية الوجودية الفردية Solipsism (وهي مؤلفة من الكلمتين اللاتينيتين : Solus بمعنى
 واحد ، Ipse بمعنى نفس) تعتبر أن الناس لا وجود لهم إلا في ذهن الفرد فحسب . ومن مؤيدي هذه النظرية بركل
 Berkeley وفيخته Fichte ودعاة المدرسة القطرية Immanence School (المترجم) .

وكان العلماء الثقات الذين استفاد منهم أعظم استفادة هم أنفسهم تلاميذ حفيد «كنفوشيوس». وقد صمم منشيوس على الفور لا على أن يحيا فحسب وفقاً لحكمة «المعلم» بل على أن ينجح أيضاً في حياته منهجاً مماثلاً لمنهجه. لقد عاش عمراً مديداً، إذ توفي في الرابعة والثمانين وقضى سنوات نشاطه في بلاطات الأمراء متقلداً مناصب أحياناً، وأحياناً أخرى ساعياً فقط إلى التأثير على من كانوا يتقلدون المناصب الهامة. ونحن نعلم أنه قد لقي الكثير من الإخفاق، بالرغم من أنه لم يكن نصيبه منه أكثر من نصيب «كنفوشيوس» نفسه أو من نصيب معاصره هو نفسه، أعني أفلاطون. ولقد قرر في سنة المتأخرة أن يدون نتائج تأملاته وخواطره، وهذه تشكل «الكلاسيكية» الكنفوشيوسية الرابعة التي تحمل اسمه، كما رأينا. ولأول وهلة، يلاحظ أن المبدأ الأساسي لفلسفة منشيوس يحمل تشابهاً لمبدأ «موتى» لأن منشيوس كان يؤمن بأن الطبيعة البشرية هي قلبيا خيرة، ولكنه لم يشارك في وجهة النظر الساذجة القائلة بأن الناس إذا تركوا لأنفسهم سيفعلون تلقائياً ما هو صواب. إن ما تمسك به هو أن لديهم القدرة، وهي في متناول أيديهم، لممارسة الخير والإحسان ولتدريب أنفسهم لتكون استجاباتهم صائبة. لقد كتب يقول: «لوتحدثنا من الناحية الواقعية، فإنه من المحتمل أن يكون الناس خيرين، وأن هذا هو ما أعنيه عندما أقول إن طبيعة الإنسان خيرة، فلو صاروا أشراراً، فليس ذلك خطأ قواهم الطبيعية. ومن ثم، فكل الناس لديهم إحساس بالرأفة، كما أن لديهم إحساساً بالخجل من الدناءة، وإحساساً بالتبجيل، وإحساساً بالصواب والخطأ. والإحساس بالرأفة مساوٍ للسلوك الفردي، والإحساس بالخجل مساوٍ للسلوك العام، والإحساس بالتبجيل مساوٍ للحشمة الدينية، والإحساس بالصواب والخطأ يساوي الحكمة». وهو يشير إلى هذه القوى العقلية Faculties على أنها «القذائف الأربع الرقيقة four tender shoots» للطبيعة البشرية. والتعبير ملائم. ولقد وهب الإنسان بفطرته هذه الدوافع الطيبة، ولكنها نتاجات حساسة يجب أن تُوجَّه ويُعنى بها، ولكن سوء توجيهها وعدم وجود بيئة ملائمة لها سيؤديان إلى تشويهها بل وإلى تخريبها.

ولأنه كان يؤمن بأن الكائنات البشرية قادرة على تنظيم الحياة الصالحة في المجتمع، لم يتردد منشيوس في الدعوة إلى أن يعزل من الأمراء من كان في حكمه ظالماً بفطرته. لقد أعلن قائلاً: «إن الناس هم أهم عنصر في أية أمة من الأمم، والحاكم هو أقلهم أهمية». والإدلاء بمثل هذه العبارات علانية يستلزم أن يكون المرء شجاعاً، ولقد كان منشيوس غاية في

الشجاعة . لقد ناقش الأمر مع الملوك ، فيقول مثلاً : « لنفترض أن رئيس محكمة الجنايات لم يكن في استطاعته أن ينظم حركة الموظفين الذين تحت رئاسته ، كيف تستطيع أن تتعامل معه ؟ » فكان جواب الملك : « أطرده » ، فقال له منشيوس مرة أخرى : « وإذا لم يكن داخل حدود مملكك الأربعة حكم صالح . ماذا تفعل ؟ » . تطلع الملك يئساً وبسرة ثم تحدث عن أمور أخرى . والمبدأ الثاني الذي اهتم به منشيوس اهتماماً كبيراً هو طاعة الأبناء لأبائهم ، الذي هو حصن التقليد الكنفوشيوسى الذى كان عليه أن يجمع شمل المجتمع الصينى لأكثر من ألفى سنة . لقد قال منشيوس : « تتجه رغبة الطفل نحو أبيه وأمه ، وعندما يصبح على وعى وإدراك بمفاتيح الجمال تتجه رغبته نحو الجميلات ، وعندما تصبح له زوجة وأطفال تتجه رغبته نحوهم ، وعندما يحصل على وظيفة تتجه رغبته نحو ملكه . . . ولكن الشخص الذى يدين بالطاعة الكبرى لأبويه حتى نهاية حياته تتجه رغبته نحو أبويه . » .

لقد كان لكنفوشيوس ومنشيوس تأثير مستمر على الحضارة الصينية لأن مبادئها ، بالرغم من كل ما فيها من حكمة ، كانت بصورة خاصة أملاً واحداً ، قائماً على إيمان بالطبيعة البشرية . ولكن مثل هذا الإيمان يمكن الإقلال من شأنه وتعريضه للسخرية والتهكم : لأن الطبيعة البشرية يمكن أن تثار دائماً لتتزعج الثقة من ذاتها . لقد كان أعنف نقد واجهه مبدأ منشيوس هو ذلك النقد الذى وجهه إليه معاصره « هسن - تزي Hsun-Tze » الذى يعتقد أنه توفى حوالى سنة ٢٣٥ ق . م . واستناداً إلى هذا الفيلسوف فإن الطبيعة البشرية شريرة تماماً ، وفى الوقت الذى أشار فيه منشيوس إلى « القذائف الأربع الرقيقة » للطبيعة البشرية ، أشار « هسن - تزي » إلى أشواك عديدة ، وفوق كل شيء وجه الاهتمام إلى حقيقة يصعب دحضها تماماً ، وهى أن الكائنات البشرية يحركها جشع متأصل ، هو الرغبة فى السلطة والكسب . ومقابل مثل هذه الغريزة ، ما الذى غنمه الإحسان والشفقة ؟ لقد قال : « هناك ما ينحصر (الطبيعة البشرية) ، حتى عند الولادة ، حب الكسب ، ولما كانت الأفعال تتفق مع هذا ، لذلك تزداد المنازعات والسرقات ، ولا يكون هناك وجود لإنكار الذات والإذعان للغير . وهناك ما ينحصر من حب وكرهية ، ولما كانت الأفعال تتفق مع هذه ، لذلك يظهر الفجور والفوضى ، ولا يكون هناك وجود للاستقامة والسلوك العام ، بمختلف مظاهره المنتظمة . ومن ثم ، فإنه يبدو أنه فى اتباع الطبيعة البشرية ، وفى الطاعة التامة لأحاسيسها سيؤدى ذلك بكل تأكيد إلى المنازعات والسرقات وإلى انتهاك الواجبات الخاصة بنصيب كل

فرد ، وإلى خلط كافة المزاج ، حتى تكون النتيجة حالة من الهمجية . « .
 ماذا كان علاج « هسن - تزي » لهذه الحالة ؟ لم يكن لديه علاج على الإطلاق . كان
 لديه مجرد علاج ملطف . فالرغبات في الكسب والتحصيل لا يمكن أبداً أن تجتث ، يمكن
 الإبقاء عليها داخل حدود فحسب . والقوانين ضرورية « لما أدرك الملوك القدامى الحكماء أن
 الطبيعة البشرية هي على هذا الشر ، وضعوا مبادئ الاستقامة والسلوك العام وشكّلوا القوانين
 ووضعوا التعليمات لاستقامة وتهذيب مشاعر تلك الطبيعة وتقومها » ، وأكثر المفكرين الأوربيين
 شهياً بـ « هسن - تزي » هو بلا شك « توماس هوبز Thomas Hobbes » ، الذي كان ينادى
 بوجهة نظر مماثلة عن الطبيعة البشرية ، ووصف نفس النوع من العلاجات لعلاج ماها من
 قصور أو نقص .

تشوانج - تزي Chuang-Tze :

ليس لدينا من دليل يوحى بأن « هسن - تزي » قد التقى بالفيلسوف الطاوي
 العظيم « تشوانج - تزي » ، ولكن الاثنان كانا متعاصرين ، وكانا يكثران التردد على نفس
 المحافل الأدبية ، ولكن لو كان هناك لقاء ما من مثل هذه اللقاءات ، لكان من الضروري لنا
 من أن نحاط علمأبه ، لأنه ربما نجم عنه صراع أكثر التهاباً ، كما نعتقد ، عن تلك اللقاءات التي
 كان يشترك فيها « كنفوشيوس » و « لاو - تزي » . وكان يطلق على « تشوانج - تزي » : قديس
 بولس العقيدة الطاوية St. Paul of the Taoist Faith والوصف صحيح ، فلقد كان عمله
 هو إعادة توضيح مبدأ الامتناع عن العمل Inaction في عبارات عميقة ودقيقة معاً ، لأن
 « تشوانج - تزي » كان أستاذاً في اللغة وعلى موهبة في التصوير الشعري . لقد ولد في ولاية
 سونج Sung في القرن الثالث ق.م . وبالرغم من أنه عرضت عليه مرات عديدة مناصب
 هامة إلا أنه فضّل أن يحيا حياة هادئة يدرس فيها ويتأمل . وقد أجاب على الرسل الذين
 أرسلهم إليه دوق « واي » ، الذي عرض عليه وظيفة « رئيس الوزراء » ، أجاب في عبارات
 أكدت أن الدعوة لا يمكن أن تكرر ، إذ قال : « انصرفوا بسرعة ولا تلوثوني بوجودكم ، إنني
 أفضل أن أتسلى وأمتع نفسي في بئر قدرة عن أن أكون عبداً لقواعد وقبود في بلاط حاكم من
 الحكام . » و يروى عنه أنه لم يفكر في أن يتخلى عن صيده عندما بعث إليه ملك « خو Khou »
 باثنين من رجاله ليعرضاً عليه تولى منصب الرقابة العليا على كل حدود البلاد . وفي مجال

المقارنة، يستبين أن « كنفوشيوس » كان أشبه بطالب وظيفة طموح .
ولقد هاجم « تشوانج - تزي » فكرة الحكومة ، وبصورة أشد من أستاذه « لاو - تزي »
نفسه . لقد قال . « كان هناك شيء مثل تربية الجنس البشري حراً ، ولم يكن هناك أبداً شيء
مثل حكم الجنس البشري . » وهو يقتبس جواب « لاو - تزي » على واحد من تلاميذه ،
كان قد سأله كيف يمكن للناس ، طبقاً لنظرية كهذه ، أن يحافظوا على النظام فيما بينهم :
« كن حريصاً على ألا تتدخل في الخير الطبيعي لقلوب الناس ، فقلب الإنسان قد يُجبر أو
يُسْتَفْر . وفي كل حالة : النتيجة خطيرة . وبالرقة يمكن لأقصى القلوب أن يلين ، ولكن لو
حاولت أن تقطعه وتصلقه - فسيتوهج مثل النار أو يتجمد كالجليد . وفي غمضة عين سيتخطى
حدود البحار الأربعة . في الراحة سكون عميق ، وفي الحركة ، بُعد شاسع في السماء ، لا
يمكن لمزلاج أن يحجزه ولا يمكن لوثاق أن يوثقه - هكذا يكون قلب الإنسان . » والهدوء
المطلق هو ما يُنصح به : « ارفع ما هو داخل نفسك وأوقف تسرب ما هو خارجها : لأن المزيد
من المعرفة نعمة . » ومن ثم يُنظر إلى كل القيم التقليدية على أنها شرك وأوهام . « إن الدعوة
إلى السلاح هي أخط صورة من صور الفضيلة ، والثواب والعقاب أخط صورة من صور
التربية ، والاحتفالات والقوانين هي أخط صورة من صور الحكم ، والموسيقى والملابس
الأنيقة هي أخط صورة من صور السعادة ، والبكاء والرتاء هما أخط صورة من صور
الأسى . » والحكيم الحق ، من ناحية أخرى ، « يضع نفسه خارج الكون ، فيما وراء الخلق
كافة ، حيث تتخلص نفسه من المهموم . وفي إدراكه للـ « طاو » فيه مطابقة للفضيلة . وهو يقصر
الإحسان والواجب لجار الإنسان وحده . وهو يعالج الاحتفالات والموسيقى على أنها أمور
عرضية . بذلك يكون عقل الإنسان الكامل في راحة وأمان . » هل مثل هذه الحالة هي نفس
تلك الحالة التي يدعوها الناس سعادة ؟ يجب تشوانج - تزي على ذلك بنعم ، ولكن هناك
سعادة زائفة يجب أن نحذرنا ، وهو يقول : « إنني أحقق بهجة حقيقية متمثلة في الامتناع عن
العمل ، وهو ما يعتبره العالم المأفادحاً . وهكذا قيل : « إن السعادة الكاملة هي في غياب
السعادة ، والسمعة الحميدة الكاملة هي في غياب السمعة الحميدة . » ونحن في هذا العالم
الديوي الذي نعيش فيه ، من المحال أن نحدد ما هو إيجابي وما هو سلبي بصورة مطلقة ، ومع
ذلك ، فإنه يمكن تحديدها في حالة الامتناع عن العمل . والسعادة الكاملة واستبقاء الحياة
يكون السعي إليها فقط في الامتناع عن العمل « ويبلغ الجدل ذروته في فقرة غاية في

الجمال : « دعونا نتفكر : السماء لا تفعل شيئاً ، ومع ذلك فهي صافية ، والأرض لا تفعل شيئاً ومع ذلك تنم بالراحة . ومن امتناع هذين الاثنین عن العمل ينشأ كل التعديل في الأشياء . يا لها من شاسعة وغير محدودة ، يا لها من شاسعة ، ومع ذلك بلا صورة ! والتنوع اللانهائي للأشياء حوالينا ينجم كله عن الامتناع عن العمل ، ولذلك فقد قيل : « السماء والأرض لا تفعلان شيئاً ، ومع ذلك فليس هناك من شيء لم تتجزاه » . « ولكن بين النامس من هو الذى يمكن أن يصل إلى أن يمتنع عن العمل ؟ » .

ونجد في مؤلف « تشوانج - تزي » خاصية قوية من خواص التصوف ، وهى إلى حد ما من بقايا الفكر البوذى ، ولعل إبداع وسحر « تشوانج - تزي » يكمنان في هذا المزيج من الخيال والإدراك : « إن من يحملون بالولائم ، يفيقون للوعيل والحزن ، ومن يحملون بالوعيل والحزن يفيقون للاشتراك في الصيد ، وبينما هم يحملون لا يعرفون أنهم يحملون ، بل إن بعضهم سيفسر نفس الحلم الذى يحلمونه ، وعندما يفيقون فقط يعلمون بالفعل أنه كان حلماً ، وتأتى « اليقظة الكبرى The Great Awakening » تدريجياً ، ونكتشف بعد ذلك أن هذه الحياة هى في الواقع حلم كبير ، ويعتقد الحمقى أنهم أيقاظ الآن » . وتنتهى الفقرة بصورة تلبس التمييز بين الواقع والخيال : « حدث لى مرة أنا تشوانج - تزي ، أن حلمت بأننى كنت فراشة ، أرفرف هنا وهناك وفقاً لكل مقاصد وأغراض الفراشة ، وكنت على وعى فقط بتبع خيالاتى كفراشة ، ولم أكن أعى فرديتى كإنسان ، وفجأة إذ به أستيقظ ويوجدت نفسى راقداً مرة أخرى . والآن ، أنا لا أعرف هل كنت وقتذاك رجلاً أحلم بأننى كنت فراشة أم هل أنا الآن فراشة أحلم بأننى إنسان . » .

ومع ذلك فيجب ألا نفترض أن « تشوانج - تزي » كان يعوزه الذكاء والدهاء أو تعوزه حتى الفكاهة . وإلى جانب الفقرات الوجدانية المتناثرة عن طبيعة « الطاو » هناك الكثير من الإدراك القاسى - صلابه هى كنفوشوسية أو أكثر دقة ، هى صينية بالفطرة : لاحظ رد « تشوانج - تزي » على تلاميذه عندما أعربوا عن رغبتهم فى أن يقيموا له جنازة فى أحسن صورة ، قالوا له : « إننا نخشى من أن حداثة الجبانة قد تأكل جسد معلمنا » ، فقال الرجل الذى كان على فراش الموت : « فوق سطح الأرض سأكون طعاماً للحدآت ، وتحت الأرض سأكون طعاماً لصراصير الطين والنمل . لماذا يتعفن واحد ليظلم آخر ؟ » ، ولكن أى تلخيص للحكمة الصينية أفضل من ذلك الذى يمكن استخلاصه من الكلمات التى يقتبسها « تشوانج -

تزي» عن معلمه : «إن فن استبقاء الحياة يتضمن : القدرة في إبقاء الكل في واحد . وعدم افتقاد شيء ، وتقدير الخير والشر بدون تكهن ، ومعرفة متى نتوقف ، ومقدار ما هو كاف ، وأن نترك الآخرين وحدهم ، وأن يهتم المرء بنفسه ، وأن يكون بلا هموم وبلا معرفة—أن تكون في الواقع كطفل». كل الفلسفات العميقة في العالم تمتضب في النهاية إلى شيء مثل ذلك ، في تناقض عنيف مع نتائج الفلسفات الزائفة . ويروي عن «لاو-تزي» أنه قد مضى ليوضح بدقة ما كان يقصده بالعيش كطفل ، إيضاحاً بلغ قمة الحكمة الصينية : «الطفل يعمل دون أن يعرف ما يفعله ، ويتحرك دون أن يعرف إلى أين . جسده أشبه بقرع جاف وقلبه أشبه برماد ميت ، ومن ثم ، فإن المصير الخير أو الشرير لا يجد له مكاناً فيه ، وحيثاً لا يكون هناك وجود لمصاير خيرة وشريرة ، كيف يمكن أن يكون هناك وجود لمتاعب البشر؟ إن من قلوبهم في حالة من السكينة والراحة ليشعرون إشعاعاً مقدساً ، بنوره يرون أنفسهم على حقيقتهم . وعن طريق تطوير مثل هذه الراحة فحسب يمكن للمرء الوصول إلى الثابت . ومن يجد الناس في طلبهم يساعدهم الله ، ومن يجد الناس في طلبهم هم عباد الله ، ومن يساعدهم الله ، هم أبنائه المختارون .

« وفي دراسة هذا ، دراسة مالا يمكن تعلمه . وفي ممارسة هذا ، ممارسة مالا يمكن إنجازه على الإطلاق ، وفي مناقشة هذا ، مناقشة مالا يمكن البرهنة عليه على الإطلاق . دع المعرفة تقف عند : مالا يدركه العقل البشري . ذلك هو الكمال . . . »

obbeikandi.com

خاتمة

عبادة من لا يدركه العقل البشرى :

كانت رحلتنا طويلة بالرغم من كونها سريعة نوعاً ما ، ولربما أسيف بعض القراء لطول وقفاتنا هنا وقصرها هناك ، ولربما أعرب البعض عن أسفهم ودهشتهم من أنه في مراحل معينة من الرحلة لم نتوقف على الإطلاق ، وكنا نتمنى أن يسمح لنا حجم الكتاب بمعالجة موضوعنا في مزيد من التفصيل المستفيض ، ولكن كان أمامنا أن نختار بين أن نخرج الدراسة في حجمها الراهن لتكون على نسق ماسبقها من دراسة وبين عمل يصدر في عدة مجلدات وحتى في هذه الحالة الأخيرة لن يسلم الأمر من عدم بلوغ الكمال .

وقبل أن نختم كتابنا ، قد يكون من المفيد أن نذكر - ولكن في حذر - نتائج معينة : لأن القارئ الذى أوصلته قراءته إلى هذه الصفحة سيكون على إدراك بالتسلسل المستمر خلال الفصول السابقة ، وهناك ثلاثة أسئلة لها أهميتها وتستوعى انتباهنا :

أولاً : ماهى الاختلافات الأساسية بين الفكر الشرقى والفكر الغربى ؟ .

ثانياً : مالذى يدين به عالم الغرب لفكر الشرق والعكس بالعكس ؟ .

ثالثاً : إلى أى مدى يمكن أن يكون هناك « تقارب » بين عالمى الفكر الشرقى والغربى ، آخذين فى الاعتبار التغيرات السياسية والاقتصادية الكبرى التى تجرى فى الشرق فى الوقت الراهن ؟

منذ عشرين أو ثلاثين سنة مضت ربما بدت هذه الأسئلة ، وخاصة الأخيرة منها ، إما ثانوية أو غير ملائمة ، فلقد كان هناك اتجاه إلى الإقلال من تأثير « الفكر » إذ كان المفروض أن الناس هم نتاج ظروفهم الاقتصادية . إننا ندرك اليوم مدى خطورة مايفكر الناس فيه ؛ إذ هو المسئول عن القلق الذى يعانىه زعماء الشعوب فى صياغة الرأى العام . والعقوبات الصارمة التى يردُّ بها الديكتاتوريون على إثم « الانحراف » إلى جانب الدليل اليومى ، على أن مثل هذه الإجراءات ليست دائماً فعالة ، لتبرهن ، ولو بمقاومة عنيفة ، على أن فى النفس البشرية ينبوعاً من الصحة ، وعزيمة أساسية على البحث

المستقل ، الأمر الذى يحول دون أن يتردى الجنس البشرى إلى مستوى الجبناء الحمقى .
 إنها موضة العصر أن نقلل من قدر فكرة « التقدم » . لقد علق « ويندهام لويس
 Wyndham Lewis فى كتابه « الزمن وإنسان الغرب Time and Western Man
 عن التقدم بقوله : « قد يؤدي التقدم نفسه إلى الإجهاز على التقدم » ؛ ولوتقبلنا
 تعريفاً محدوداً نوعاً ما عن التقدم فقد يبدو لنا فقط أن مثل هذه النبوءة من المحتمل جداً
 أن تتحقق . وفى مدى قرنين استطاع التطوير التكنيكي الفعال أن يغيّر عالمنا ظل مبقياً
 على ما كان عليه لعدة آلاف من السنين . إننا نعيش اليوم ، كما لم يعيش أى جيل آخر ،
 تحت تهديد الفناء الفجائى . وجميع المحن التى مر بها الإنسان عبر التاريخ تعد نافهة
 بالقياس إلى المحنة الراهنة التى نعيشها فى كل الأمور الإنسانية والكونية ؛ ومع كلِّ فإن
 الإنسان يعرف فى النهاية مصيره لأنه تعلّم أن يعرف نتائج قوته .

وإزاء هذا الوضع الفريد تظهر حقيقتان طريفتان ، وكلتاها لها علاقة مباشرة
 بموضوعنا . فى المقام الأول : ما عليك فقط إلا أن تسأل أى فرد آدمى عما إذا كان من
 رأيه أن التقدم التكنيكي العظيم فى القرنين الأخيرين قد ساعد على زيادة السعادة
 البشرية (وليس « مجموع السعادة البشرية » ، لأنه لا وجود لمثل هذا المجموع)
 وستكون إجابته « كلا » دون أن يجهد نفسه بالتفكير . وفى المقام الثانى ما عليك فقط
 إلا أن تسأله عما إذا كان من رأيه أن القضاء التام على الحياة البشرية قد يكون شيئاً
 يؤسف له ، فسيدفعه ذلك بالمثل إلى أن يجيب قائلاً : « كلا » (دون أن يفكر تفكيراً
 عميقاً) . بمعنى آخر ، قد يبدو أن الأمر هو قضية أن معظم الناس فى تأملهم لمثل هذه
 الأمور تأملاً سطحياً لا يفكرون تفكيراً سامياً تماماً فى حياة البشرية ، ولا يعتقدون أنه
 يمكن عمل الكثير لتحسينها : مثل هذا التشاؤم صحيح بالنسبة للجميع فيما عدا
 الصغار الذين لا ينعمون كثيراً بالحياة ذاتها ، نظراً لما يبدو معقوداً من آمال ستمنحها لهم
 الحياة . وقد يكون هذا هو السبب فى أن حضارتنا ، كما هو واضح قبل كل شىء فى
 نظمتنا التربوية الحديثة ، يبدو أنها تقصد استمرار ظروف الشباب وعلى أن تُخفى بكل
 وسيلة من وسائل الدعاية مهزلة العصر : لأن هذا هو أسلوبها فى جعل الحياة محتملة
 مخلوق لم يكن متحمساً على الإطلاق ، بصورة خاصة ، وإذا به الآن يبدأ فى إظهار
 ما يدل على أنه يتطلع إلى الحياة بنظرة تكاد تكون نظرة يأس وخيبة رجاء .

ومها يمكن أن يقال عن التاريخ ، فهو ملء بما هو غير متوقع وبما هو عرضي .
 والتكهّنات بالمصائر تُسمع في كل جيل وتحل بنا الشرور ولكن الشرور لا تعد دائما أكثر
 الأمور الوشيكة الحدوث . والعيش تحت تهديد الفناء الطبيعي ربما لا يبرهن في مجموعه
 على أنه وبيل . والجشع والحب والرضا في كل صورها أكثر احتمالا لأن تنتعش في زمن
 يزداد فيه الرخاء . وعصرنا عصر فيه البشرية ، وقد تُزوّدت بأساليب الدمار الذاتي ،
 قد يُدفع بها للتحرى عن واقع قيمة ذلك الذى يوشك المرء أن ينبذه . هذا صحيح
 بصورة خاصة بالنسبة للإنسان الغربى الذى اضطر كما سبق أن نوهنا إلى ذلك كثيراً ،
 من جراء ظروف وجوده المادى ، اضطر لأن يعيش في عزلات عديدة عن الواقعية .
 لقد أثرت علينا التغيرات الاجتماعية التى نجمت عن الثورة الصناعية في أوروبا
 بضخامتها وجدتها ، ولكن يجب ألا تعمينا عن غيرها من التغيرات التى حدثت في أوروبا
 كجزء من التوازن الطبيعى للتاريخ ، لأن الحضارة الغربية تختلف عن أية حضارة غيرها
 في طابعها الديناميكي ، هذا هو الفارق الرئيسى بين الثقافة المسيحية التى امتزجت بالمثل
 العليا الإغريقية والرومانية وبين أية ثقافة أخرى . لقد كانت طبيعة الثقافة المسيحية ألا
 تعارض كثيراً عن أن تنجم عنها تغييرات اجتماعية بالرغم من أن كثيراً من هذه التغيرات
 كان لها اسماً طابع « علماني » . لقد كانت الحركات الاجتماعية الكبرى في القرن التاسع
 عشر ، مثلاً ، متطفلة على المثل العليا المسيحية ، التى تبرأت منها في حالات كثيرة .
 وقد نفترض أن استئصال المسيحية ، وهى في بعض الجهات سياسة مقصودة ، سيودى
 بمثل هذه الحركات الاجتماعية الثورية ، على عكس اعتقاد كثير من المصلحين
 العلمانيين : لأن استئصال المسيحية سيحرم عالم الغرب من عنصر من عناصر التوتر ،
 بدونه من المحتمل أن يهبط المجتمع إلى مجرد مجموعات متماثلة . والمثل الأعلى الاجتماعى
 المسيحى كان دائماً ديناميكياً ، لأنه لا يواظم على الإطلاق ، بل مازال أقل خضوعاً
 لسيادة نظام سياسى . والكنيسة والدولة ، القداسة والعلمانية ، هذان القطبان ، بدلا
 من استغراقها في الغدر بالإنجيل المسيحى ، صارا شرطين لفاعليته اجتماعياً . وكان
 الاستثناء الواضح هو الإمبراطورية البيزنطية بتكوينها الحكومى الدينى theocratic
 الصارم ، ولكن الإمبراطورية البيزنطية كانت تُدعى بحق الإمبراطورية الشرقية ، وكان
 دستورها إلى حد بعيد دستورا شرقياً ، لأن أساس الحضارة الشرقية هو التسلسل الطبقي

الاجتماعى الذى لم يراع فيه التطور والارتقاء .

وتبقى حقيقة أن كل العقائد العالمية الكبرى قد وفدت من الشرق ، وفى مقدمتها جميعاً المسيحية بل عندما تظهر عقيدة جديدة ، وهو كثيراً ما يحدث فى أمريكا ، فإنه عادة ماتكون عناصر ومفردات العقيدة شرقية حتماً ، لأن الإنسان الغربى يحس - إن لم يكن بغير ماسبب وجيه - أن أسرار الحياة وألغازها يعرفها حق المعرفة - إن لم يكن يمارسها دائماً بصورة أفضل - أقل شرقى عن أعظم عالم من علماء الغرب المتخصص فى شئون الغيبات . ويتخذ هذا التبجيل للحكمة الشرقية ، أحياناً ، صوراً مغالى فيها . فقد أدى هذا بمدام بلافاتسكى Madame Blavatsky وكانت امرأة ذات شخصية جديدة بالاعتبار ، إلى تأليف كعب مثل « المذهب الغامض The Secred Doctrine » (١٨٨٨) و « ايزيس سافرة Isis Unveiled » ، نددت فيها بديانة الكنائس الغربية وبصورة خاصة الكنيسة الرومانية وأيدت العودة إلى عقيدة أكثر قدماً وسحراً وغموضاً ، مستوحاة من الشرق . وقد أطلقت المؤلفة على هذه العقيدة اسم « المذهب الغامض » . إذن مشكلة المذهب الغامض هى أنه ليس فى مقدور أحد ، ما لم يكن مُعدداً لأن يمر بصور التعلم التى تتضمن (فى النهاية) تكلفة باهظة ، اكتشاف ماهيته . وكل عقيدة لها لبها من الغموض وإلما استحققت اسم عقيدة ، ولكن عقيدة لها مجرد غموض هى منا : موضوع دينى جد هزلى وسخف منطقي : لأنها تحاول أن تلقى ضوءاً على غموض الوجود بأن تعلن فحسب أنه غامض بطبيعته .

إن عقيدة تبشيرية كالمسيحية ، بالرغم من العداوات الوثنية التى تحيط بها ، لتهدها تهديداً خطيراً جداً معتقدات تحمل تشابهاً ظاهرياً لها . وهذا هو ما حدث بالنسبة للكنيسة قديماً : إذ فى الوقت الذى رضخ فيه البرابرة ، كان أكبر منافس للعقيدة المسيحية عقيدة أخرى ذات أصل شرقى مماثل . ودعوتها بعقيدة ربما لإعطائها تعريفاً أعظم مما تستحقه أو حتى مما هو واقعها . لأنه بالرغم من الأبحاث الهامة والاكتشافات الحديثة ، فإننا مازلنا نعرف اليسير جداً عن التجمع الغامض للمعتقد الذى يطلق عليه اسم « مذهب العارفين Gnosticism » وقد أسفر الكشف

الحديث شمال الأقصر في مصر عن ثلاثة وأربعين كتاباً من كتب العارفين المقدسة ، هي اليوم تحت الدراسة والفحص بجامعة لوفين Louvain Univ. . ومن المحتمل أن تلتقى ضوءاً على كثير من مظاهر هذه الصورة من صور المعتقدات ، ولذلك يجب أن نحتس في هذه المرحلة من الحدس غير المسند . ويكاد يكون كل مانع في الوقت الراهن عن مذهب العارفين مأخوذ من بُدْيِ كتبها أطباء مسيحيون وآباء يسوعيون يهاجمونه . هذه الهجاء المعبرة عن أقصى الحقد والضعف ، وقلَّ أن يكون لها مثل حتى في التاريخ الكنسي ، لتتيح لنا تبصرة بالخاطر الذي كانت تشكله أو كان من المفروض أن تشكله ، بالنسبة للمجتمعات المسيحية ، وهناك سببان من أجلها كان اهتمامنا بمذهب العارفين هنا ؛ إذ إنه يمثل في المقام الأول ، نظاماً من العقيدة يدين بالشيء الكثير للديانات الشرقية العظيمة التي كتبت عنها ، حتى إنه يشكل نوعاً من الرابطة بين هذه المعتقدات وبين المسيحية الغربية ؛ ولأنه يمثل ، في المقام الثاني ، نظاماً عن العقيدة مع تعديلات ملائمة ، قد انتعش ، بالرغم من أن انتعاشه كان بصورة غامضة في كل عصر ، بما في ذلك عصرنا . ولعل مذهب العارفين لا يعدو ، في الواقع ، أن يكون تلك « الديانة » العالمية المجردة التي كان يسعى إليها الأشخاص المحبون لخير الناس في كل جيل من الأجيال أو أيضاً بعض العقلين الذين زایلهم الوهم والخيال كوسيلة للاتحاد الروحي للبشرية ، وقد يبرر هذا اتفاقنا ، في بداية هذا الكتاب على تجنب أية كلمة غامضة في تناول عقائد الشرق الراسخة .

ومذهب العارفين هو ببساطة ديانة العلم الروحاني Gnosis أو المعرفة ، إذن ماهي المعرفة التي كان يطلبها العارفون ؟ لقد كانت معرفة تفوق الإدراك - أعني ، معرفة أوتيت لروح طاهرة . ويقدر ما يمكن أن نلاحظ (بالرغم من أن العقيدة قد اتخذت صوراً كثيرة) يتمسك العارفون بأن الجسد شر طالما أنه غرق في عالم مادي هو شرفي ذاته ، ومن ثم فإن الطريق إلى الخلاص يكمن في عدم التجسد disincarnation ، هروب إلى دنيا الروح . مثل هذا الهروب يمكن أن يؤثر عليه فقط : نظام صارم وتطهر روحي . ولما كان تكنيك مثل هذا النظام قد برهن على صعوبته ، فإن الساعي وراء الخلاص عادة ما يحتاج إلى أن يحاط علماً « بغوامض »

معينة. ومن المفروض أن عقائد مثل عقيدة الأورفية Orphism^(١) كانت بمثابة مدارس تمرين لأتباع العارفين. وبالرغم من ذلك ، فإن الإبقاء على الاهتمام والشغف بإدراك روحى بحت أمر يفوق قدرة غالبية الناس وقدرة أى شخص لفترة طويلة . وفي الوقت الذى يكون فيه العقل مركزاً على « الواحد المطلق » أو « الكل » أو « البراهمان » إذ بالعواطف وقد تجوهلت واحتُفرت ، تتجمع لتثور . وكما أن العقل فى وقت من الأوقات يحل به التعب من أفعاله ، فقد تصرأ أكبر هذه الغرائز على المعاملة بالمثل بصورة مروعة ؛ وفى أكثر الحالات اعتدالا ، ينحط قدر العقيدة إلى الاتجار فى السحر والعرافة (وبعض أوراق البردى الخاصة بالعارفين والتي اكتشفت حديثاً تقدم دليلاً على الانغماس فى هذه الأمور) : وفى أسوأ الحالات تنقل قوة الغريزة العقيدة من روحانية سامية إلى مرتع فاسد للساحرات ، ولهذا ، فقد نَبَذَ مذهب العارفين ، وسيستمر فى نبذه ، مثل هذه الضلالات الدينية كالمهرطقة المانيشية Manichaeism heresy والكاثارية Catharism heresy (فى مستهل العصور الوسطى) والبريسكيلية Priscillianism heresy (فى أسبانيا) ، وكالمهرطقة الألييجنسية Albigensian Bogamils heresy (فى بروفانس) وهرطقة بوجاميل heresy (فى شرق أوروبا) ، إلى جانب عقائد أخرى عديدة فى آسيا الصغرى وفى الشرق الأوسط . كل هذه العقائد كانت تهدف إلى أن تكون مقرونة بخبرات ضخمة ناجمة عن الرغبة المنطقية الإلهام ظاهرياً ، فى استرضاء قوى الشر . والناسك المؤمن بالمطلق الذى يحملها الجوفى حاجة لأن يعود ، حتى ولو كانت عودته للتزود بالقوت فحسب ، إلى العالم الذى هرب منه ، وهو ليس بحاجة إلى أن تمتلكه الدهشة من أنه

(١) نسبة إلى الشاعر الإغريق الأسطوري أورفيوس Orpheus الذى عاش فى القرن الثامن ق . م . وتنادى هذه العقيدة بعبادة أورفيوس والإله ديونيسوس Dionysus ومن تعاليم هذه الطائفة أن نظرة العالم للفلاحين والعييد الكادحين تتعارض مع علم الأسطورة الذى يمثل نظرة العالم للأريستوقراطية . وفى علم الأسطورة ، الحياة فى العالم الآخر تعتبر استمراراً للحياة على الأرض ، وتعتبر الروح كائناً جسدياً . . والعقيدة الأورفية تقرن الحياة فى العالم الآخر بالسعادة والحياة على الأرض بالمعاناة . ورحلة الروح فى الجسد تعتبر هبوطاً من العالم الآخر ، وأفكار هذه العقيدة تعبر عن احتياج على تحول الإنسان إلى عبد ، إلى آلة تكلم . والعييد يقرون تحرير أنفسهم بتخلص الروح من الجسد الذى هو ملك لسادتهم . ولقد كان لهذه العقيدة أكبر الأثر فى ظهور الفلسفة ، وبخاصة الفلسفة المثالية Idealism الإغريقية القديمة (المترجم) .

كلما تكرر غيابه وطال كلما صارت هذه البقعة الحقيرة فريسة للأعشاب والحوام والفساد . وقد يكون مثيراً ، رغم ما في ذلك من خطورة ، أن نرى في مذهب العارفين إحياء لتلك الحركة العامة للبعث الروحي التي اقترنت بالأسماء الضخمة لـ « زرادشت » و«البوذا» و«مهافيرا» و«كنفوشيوس» و«لاو-تزي» . وأما عن أن مذهب العارفين قد «انبثق من آسيا» ، فهو أمر مؤكد وهو يحمل آثاراً واضحة لتأثير البوذية في رفضه للطبيعة المادية باعتبارها «هما» ، وللتأثير الفارسي في مفهومه للصراع بين الخير والشر على أنه الضد بين النور والظلمة ، وللتأثير المصري (وخاصة من الفترة المتدهورة) في تعامله بالسحر والعرافة وفي البحث في عالم الجن والشياطين demonology^(٢) وبالرغم من أن العقيدة في أسمى صورها من المحتمل ألا تجتذب إلا المثقفين ، إلا أن لدينا سبباً للاعتقاد بأنها كانت تتمتع بمكانة جديرة بالاعتبار بين عامة الشعب . وقد تبلغ عقيدة غامضة من العقائد الروحانية أعظم شهرة لها بين أنصاف المتعلمين ، خاصة أنصاف المتعلمين المهذبين : دليل النجاح لتلك الصورة العصرية المبسطة لمذهب العارفين ، أعنى العلم المسيحي . وإن مذهباً للعارفين من النوع الأسمى هو ذلك المذهب الذي يدعو إليه الدوس هكسلي Aldous Huxley وأقرانه بمثل هذه البلاغة من لوس أنجيليس ؛ إذ هم يعتقدون بمافيه الكفاية أن مهمتهم بمثابة تقديم الفيديانتا للغرب^(٣) . وخطيرة بالمثل حقيقة أن وجهة نظر هكسلي ، بالرغم من تعاطفها مع المتصوفين المسيحيين ، معادية بكل تأكيد للكنائس المسيحية عداً متبادلاً وبصورة خاصة كنيسة روما .

تعظيم الأنا

في بياننا عن تعاليم البوذا ، كنا نسعى إلى إيضاح أن التنور الذي طالب بالوصول

(٢) يقال إن خمسة أوراق من أوراق البردي الخاصة بمذهب العارفين التي سبقت الإشارة إليها كتبها هيرمز ترميميغستوس Hermes Trismegistus (هيرموز المثلث التعظيم) ، وهي الترجمة الإغريقية للإله المصري «توت» . والكتابات السنسكريتية لهذا المؤلف ، ولعله كان كاهناً أو مجموعة مؤلفين من الكهنة ، ألفت في القرن الثالث الميلادي ، ولم يكن مذهب العارفين مجرد مذهب توفيقى فحسب (أعنى توفيقاً لكثير من الاتجاهات المختلفة) بل كان على استعداد لأن يستعير المصطلحات الفنية من المعتقدات المضادة ، ربما لغرض التغلغل والاندماج .

(٣) انظر كتاب «الفلسفة الدائمة» The perennial Philosophy تأليف الدوس هكسلي : وانظر أيضاً كتاب «الفيديانتا للعالم الغربي» The vedanta for the Western World تأليف كريستوفر إشرود .

إليه بدا أنه أثار فراغا . والشخص غير المتور ، بعينه الروحانيتين مغمضتين ، ينعم على الأقل بالرؤى أيا كانت وهمية وخادعة . أية فائدة إذن تعقب فتح عيني الروح بالقوة ؟ أى إنعاش يمكن أن ننعم به من التطلع بثبات إلى « الضوء الواضح للفراغ » ؟ إننا نكتشف هنا لغزا من الألغاز الكبرى في المعتقدات الشرقية العظيمة - لغزا يصعب على المفسرين العصريين للفيداننا تفسيره لو اضطروا لتفسيره . وتنادى كل العقائد الرئيسية في العالم بالحاجة إلى النضال من أجل صورة ما من صور الواقعية الروحية ، وهذه الواقعية عادة ماتقترن بالإله ، ولكن البوذية ، مثلها في ذلك مثل الجينية Jainism لا إله لها . والواقعية الأساسية للمناهج الهندوسية ليست « الإله » بل « البراهمان » ، بديل مبهم للإله ، ونتيجة لذلك ، فإن أعظم الأناجيل الشرقية تناولوا للعلاقة المقدسة تجدي أنه يصعب عليها ، عند إيضاها كيف أن النفس البشرية يمكن أن تحقق السعادة ، أن تتجنب إلى حد ما ، تقديم فكرة الشخصية : لأنه بدون شخصية من المستحيل تحليل ذلك الأساس في الكون الذى بدونه الحياة والوجود يصبحان بلا معنى ، أعنى بلا حب . والحب يجب أن يكون له هدف : وذلك الهدف ، بالرغم من أنه لا نهائى يجب أن يتقاسم في طبيعة الحب . ومحاولة وصف هدف الحب على أنه لاشخصى ، كما سبق أن رأينا ، محاولة عابثة . ونظرا لأن فكرة الحب تفترض مسبقا وجود علاقة ، وطالما أن هذه العلاقة تفترض مسبقا وجود تبادل - عطاء وأخذ ، أو بالأحرى منح واسترداد - فإن الشخصية التى تحب وتكون محبوبة تفترض مسبقا شخصا أو نفسا هو بالمثل محبوبا ومحبا . ونتيجة لذلك ، فإن العقائد الشرقية التى تجرد الإله من أن تكون له شخصية ، مضطرة ، بمنطق حتمى ، لأن تجرد المحب من نفسه . وأثناء دراستنا رأينا هذه العملية وهى تعمل بصورة متكررة . ومن أجل الاندماج مع « البراهمان » تضطر « الأنا » الفردية إلى تحمل تضحية ذاتية كاملة . وعدم الثقة الشرقية في الفردية هو باختصار نتيجة استغراقها الدائم مع صورة من الاتحاد المقدس مساوية ، من الجانب البشرى ، للفناء .

ومع ذلك ، فقد يثار تساؤل عما هو الحب إذا كان لا يؤدي إلى اتحاد فيه إنكار للذات ؟ ألا يدعو حكماء الشرق فحسب إلى أسمى وأنقى صورة من صور الحب ، عاطفة (إذا لم تكن هذه كلمة ضخمة جدا) تستبعد منها كل عناصر الأثرة ؟ ألا يجرب

المحبون ، بالرغم من إنسانيتهم ، الإحساس ، ولو بصورة عابرة إلى حد ما ، بفقدان أنفسهم في بعضهم البعض ؟ الجواب هو نعم ، ولكن علينا فقط أن نتأمل لفترة لنندرك أن هذا ليس إلا نصف التجربة وليست كلها . والمحبون الحقيقيون لا يفقدون أنفسهم في بعضهم البعض فحسب ، بل يجدون أنفسهم في بعضهم البعض ، فإذا لم يكن الأمر كذلك فستنهي عاطفتهم بتحطيمهم . وذلك هو جوهر العاطفة بالمعنى الفيزيائي : إنه تخريب ذاتي . وكل شريك يستخدم الآخر كموضوع يجد لنفسه فيه « مخرجا » ، وكلنا يعلم أن هذا الإسراف المفرط للحب ، الذي قد يوجد على مستوى يسمو بكثير فوق مجرد الشهوة ، كما في العلاقة القائمة بين الآباء والأبناء ، ينتهي بإلحاق الضرر بالشخص المحبوب . والنتيجة دائما هي العقم والدمار .

ولعله واحد من أعظم متناقضات التجربة أن مأساة الحب في أكثر مستوياتها بدائية - بدائية جدا لدرجة أنه يكاد أليستحق أن يطلق عليه اسم الحب بالمرّة - تحمل أقوى تشابه لمأساة حب في أكثر مستوياتها تهديبا . هذا هو المستوى الذي تطمح إليه فلسفات العارفين والبوذية والفيدانتيكية . ومفسرو هذه الفلسفات يدعون الناس إلى اندماج في الألوهية به تحطم النفس تماما وتنمحي . والاندماج والتحطيم الذاتي يتداخل كل منهما في الآخر ، العملية لكونها غير شخصية ، عملية من جانب واحد . والتحول في عاطفة الشخص إلى « شيء » مساوٍ للتحول في صوفية الشخص إلى « مفهوم » ، والنتيجة هي بالمثل عقم . وتاما مثلما تتضمن العاطفة العمياء التحول من الإنسانية من ناحية إلى حيوانية متوحشة ، فكذلك يتضمن المذهب العقلي الأعمى التحول من الإنسانية من ناحية أخرى إلى عقم المذهب الروحي . هذا هو التفسير لحقيقة أن عقيدة ذات طابع تصوفي متطرف قد تتكس في أية لحظة إلى ضدها : لأن الفاصل بين المجالين واه جدا . وإن مذهبها متصوفا متحررا ، من أية نقطة يبدأ ، هو دائما مذهب « عريدي Orgiastic » أو « ديونيزي Dionysiac »^(٤) بالمعنى الذي نادى به نيتشه Nietzsche - مريح نفسي أعمى أو جسدي أعمى . والعميان يمكن أن يشغلوا أنفسهم بأي وضع فيما عدا الرؤيا .

(٤) نسبة إلى ديونيزوس Dionysus إله الخمر عند الإغريق (الترجم).

ومن ثم ، فإنه مثلما لاحظ ماكس شيلر Max Scheler (٥) ، « يمتدح البوذا الوضع الذى يولى فيه الحب ، ولكنه لا يمتدح الهدف الذى ينتهى إليه ، بمعنى آخر فإن لعزلة الذاتية فقط ، إنكار الذات الذى يتضمنه الحب ، هو الذى يميزه » . ولاحيلة للإنسان من الإحساس بأن إدراكا لهذا القصور فى كل من البوذية وفى الفيدانتا ذاتها ، قد أطم حكماء هنود عصريين أمثال راما كريشنا Ramakrishna لتوجيه مثل هذا الاهتمام بحقيقة أن « معرفة وحب الله هما فى النهاية شىء واحد والشىء نفسه ، ومامن فارق بين المعرفة الخالصة والحب الخالص » . ولكن هناك فارقا . والمعرفة أو العقل ، كما رأينا ، هى إدراك الخصائص عن طريق مفاهيم . وبالنسبة لمثل هذه المعرفة ليس هناك من مقابل أو تعويض . والحب من ناحية أخرى ، يتضمن نوع العلاقة التى عرفها مارتن بيوبر Martin Buber بأنها علاقة « أنا وأنت » كضد لـ « أنا وهو/هى (لغير العاقل) » ، ويتساءل « راما كريشنا » متى سأصبح حرا ؟ : « عندما تتلاشى الـ « أنا » ، ولكن لو أن الـ « أنا » تلاشت تماما ، كيف يمكن أن تكون هناك علاقة حب ، وما المقصود بأن يكون المرء حرا ؟ لا بد أن يكون هناك شىء لى لأعطيه ، حتى لو كان للتخلى عنه ، ونقيض الحب هو أنه ، فى مثل هذا التخلى ، تزداد النفس سمواً أخلاقيا . والنفس العاجزة عن مثل هذه التضحية هى وحدها تظل عقيمة ، « أنا » معجبة بذاتها . وعلى مستوى الميتافيزيقيات ، فإن إنذار البوذية وتعاليم الفيدانتا بتحطيم « الأنا » كتمهيد للاندماج مع « المطلق » ، هو فى المقام الأول لإكمال الإلغاء ثم لتحريك الصفر إلى مالا نهاية . ونحن نعلم طبقاً لتعليم الفيدانتا ، أن مايتكشف عندما تنمحي الـ « أنا » هو الآتمان Atman والآتمان واحد من البراهمان ، ولكن إذا لم تكن هناك تضحية ، مجرد إلغاء فقط ، لا يمكن أن تكون هناك موهبة ، ولو لم يكن هناك ، من جانب الألوهية ، تداخل واقعى ، لا يمكن أن هناك نعمة . وكما نذكر ، جادل كابيلا Kapila فى أن المعرفة الحقيقية تكشف عن أنه « لا أنا موجود ، ولا أى شىء مئلك لى ولا وجود لى بالفعل » . ولكن نحن موجودون فعلا ، وليس هدف الفلسفة ، إلى حد كبير ، تحطيم الوجود بقصد جعله ذا مغزى .

(٥) انظر الفصل الثالث من كتاب «وضع البشر فى الكون Die Stellung des Menschen

im Kosmos. (١٩٢٨).

ويمكننا الآن أن نلخص إجابتنا عن السؤالين الأولين اللذين وجهناهما إلى أنفسنا :
 في أن الفارق الرئيسي بين الفكر الشرقى والغربى ، لو نظر إليه نظرة عريضة جدا ،
 لاتضح أنه يكمن فحسب فيما طرأ على الفكر الشرقى عندما دخل ، نتيجة للإلهام
 المسيحى ، مبدأ روحى جديد فى المجال الطبيعى بغرض تحويله . وليس من هدف كتابنا
 هذا ، الذى يستبعد التبريرات ، أن يتساءل لماذا كان على المسيحية أن تعمل بهذه
 الطريقة ، ولكن مما تجدر الإشارة إليه معا أنه لم تَسعَ أية ديانة شرقية أخرى لتحقيق مثل
 هذا الغرض ، وأن الحواريين المسيحيين الأولين ، بالرغم من اختلاف أمزجتهم
 وقدراتهم ، كانوا واضحين تمام الوضوح فى أفكارهم الذاتية بالنسبة لجدة وأصالة
 عقيدتهم ، والإنجيل الرابع بتفسيره الفلسفى عن التجسيد ، من الواضح أنه موجه إلى
 فلسفات العارفين عن « الروح الخالصة » التى كانت مشهورة وقت ذلك^(٦) . « فى
 البدء » يقول الكاتب (وقد يكون يوحنا وقد لا يكون) ، كان الكلمة ، والكلمة كان
 عند الله ، وكان الكلمة الله^(٧) بمعنى آخر كان عالم الروح ، منذ زمن سابق للوحى
 المسيحى ، فى عزلة لا نهاية لها عن عالم المادة ، ولذلك فقد يتخذ الدين صورتين : إما
 تلهف النفس للاندماج فى ألوهية بعيدة المنال ، أو أن تصير عبادة طبيعية سافرة لمذهب
 وحدة الوجود Pantheism . وفى الواقع لقد كانت هاتان هما صورتان اللتان اتخذتهما
 الديانة فى العالم السابق لظهور المسيحية . ومع ذلك ، لما قَدِمَ المسيح عليه السلام تبدل
 الموقف . ولقد أظهر النظام الاجتماعى فى عالم الغرب ، لما كما سبق أن أوضحنا ، حركة
 ثورة وعنف Sturm und Drang ، إن شئت ، غربية كل الغرابة عن أى شىء فى
 الشرق ، بل حدث فى ذلك الوقت أن صار الشرق وقد تغلغلت فيه أفكار الغرب عن
 عبادة القومية . وإنما لنا أمل أن ما بُشِّرَ به كثيرا من « يقظة الشرق » لن يبرهن على أنها
 كانت يقظة من حلم خاص سعيد إلى كابوس فرد آخر .

(٦) يقول دكتور دودDr. Dodd فى كتابه عن الأنجيل About the Gospels (١٩٥٠) إن الإنجيل
 الرابع كتب « لمن كانوا يتحولون من الوثنية الشعبية ساعين إلى طريق أنقى وأكثر روحانية فى الدين » . وقد يعتقد
 الإنسان أنه قصد به ، بالمثل ، من كانوا يسعون إلى شىء أكثر نباتاً ورسوخاً ، بينما كانت تجذبهم فلسفات
 لا روحانية خالصة .

(٧) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الأول آية (١) (الترجم) .

التوفيق ، صحيحه وزائفه :

والسؤال الأخير الذى يجب أن نوجهه لأنفسنا فى النهاية ، خاص بإمكانيات « التوفيق » بين الفكر الشرقى والفكر الغربى . وقبل البدء فى تناول هذا الموضوع الصعب ، ولو أنه موضوع مألوف ، فإنه من واجبننا أيضا أن نوضح نقطة هى أنه : ليس من المتوقع لتقارب ما لو خطط تخطيطا دقيقا أو صار موضوعا لقرارات حماسية فى مؤتمر ما من المؤتمرات الدولية أو لو اتخذ صورة مرشد عام لتعاليم أخلاقية - ليس من المتوقع أن يبرهن على فعاليته . وقد يكون من الحماقة الإقلال من قدر جهود الأشخاص دعاة السلام والوثام لإيجاد تناسق بين العقائد المتطاحنة أو لإزالة أقل سوء تفاهم ، ولكن يظل مثار شك ما إذا كانت المحاولة اليائسة لإيجاد أساس للاتفاق (وعادة ما يمكن قبوله لصيغة شفوية بشكل ما) هى فى فائدتها كفائدة عبارة صريحة عن أوجه الاختلاف . وربما كان الناس على استعداد لأن يوضحوا إلى أى مدى هم على اتفاق أو، كما هو متبع فى أية مناقشة سياسية أيديولوجية، كيف أن كلا يعتبر نفسه بطلا يفضل غيره : مثلا أعلى متميزا لصفة (مثل الديمقراطية). وفى العمل معا، لا يكون « الإجماع » أقل ضرورة بكثير، بل يكون فى الواقع أقل تعميما بكثير عما هو عادة مفروض . ويتضح هذا فى عنف النقد ، فيما هو غالبا موجود من شدة النفور الشخصى داخل المنظمات التى تمثل فى نظر العالم جبهة متحدة . وأكثر الاتحادات فعالية هى عادة تلك التى يتفق فيها الأعضاء على الاختلاف فى الرأى فيما عدا الشقاق ، أما أقلها فائدة فهى تلك التى أمكن التخلص منها قبل وقت الأزمة بدلا من التخلص منها وقتها . ولو كان على الكنائس ، بقصد إخفاء الشقاق فى البلاد المسيحية ، أن تلجأ إلى عادة استقطاب خلافاتها ، لكان هناك خطر جسيم من أن روح التوفيق قد تودى بها أو ببعضها إلى أكثر الروابط حيرة : وهو ما حدث فى ألمانيا النازية . وهناك شكوى متكررة من أن الأحلاف تتصدع لو زال عنها الخطر المشترك مرة ، ولكن هذا هو ما ينبغى على الأحلاف أن تفعله . ونحن نعرف من خبرتنا أى مشهد محزن تعرضه لو لم تفعل ذلك . ومن الأفضل بالنسبة للمذهب المادى والمذهب الروحانى الزائف أن يتصدى لها المسيحيون كمسيحيين والمسلمون كمسلمين والبوذيون كبوذيين ، عن أن

يتحد معتقو هذه العقائد ليتكلموا باسم كيان ماغامض يسمى الدين ، أو المثالية ، أو حتى الفلسفة الدائمة .

هذه الملاحظات التي قُصد بها إحباط المحاولات الزائفة للوصول إلى وفاق ، يجب ألا تفسر على أنها دعوى لكل منا إلى جماعته التي انفصل عنها وبدأ يتجنب جهد الفهم المتبادل . وقد يبدو مثل هذا الاقتراح غريبا في خاتمة لكتاب من هذا اللون ، إذ يجب علينا ، على عكس ذلك ، أن نضع جهودنا لدراسة صور أخرى من المعتقدات ، خاصة تلك التي تبدو أنها تختلف اختلافا كبيرا عن معتقداتنا الشخصية . وهناك اتجاه يؤسف له - حتى لو كان الأمر كذلك - اتجاه إلى التخبط على غير هدى بحثا عن تئور ، في الوقت الذي نهمل فيه ما هو قريب منا . ولوقادتنا دراسة الدين المقارن ، كما سبق أن اقترحنا ذلك ، إلى الاعتقاد بأن صورا معينة من الفكر قد انتعشت مع اختلافات محلية ، فوق بقاع واسعة ، مدللة بذلك على أن البشرية المتحضرة تتجه في غياب إلهام ماعين إلى احتضان نوع معين من العقيدة ، لأمكننا أن نتقصى بنجاح عما إذا كان مثل هذا الاتجاه ، بغض النظر عن الأمثلة التي سبق أن سقناها ، واضح في التأملات الفلسفية في الوقت الراهن . ومتابعة مثل هذا التقصي قد تبدو لأول مرة عبثا : أولا ، لأننا سبق أن عزونا إلى الفكر الشرق لامبالاة في التمييز بين الدين والفلسفة ، وثانيا ، لأنه يبدو ، بالفحص السريع ، أن الفلسفة الأكاديمية في أوروبا قد فصلت نفسها إلى حد بعيد عن الدين لكي تستبعد الاحتمال بأن يصير مثل هذا الاتجاه واضحا . ولا شك أن هذا الافتراض لا أساس له من الصحة ، لأن اتجاهها ما يمكن أن ينبىء عن نفسه بصورة فعالة تماما في أسلوب سلبى أو أسلوب إيجابى ، وقد يعزى جذب الكثير من الفلسفة الغربية ، على وجه الدقة ، إلى الافتقار إلى تلك الصورة من التعضيد الذى استمدت منه قوتها في القرون السابقة . ويمكننا أن نكتشف ، بالمثل ، حتى في المناهج أو النظريات التي لم تظهر إلى النور في الوقت الراهن ، دافعا - وغالبا ما يكون نتيجة ضعف - نحو نوع من مذهب يقينى dogmatism كان مقرونا وقت ذلك « بنحرفات » الماضى .

ونظرية الوضعية المنطقية - وهي تدعى أنها تشكل منهجا - قضية في صلب الموضوع . والوضعية المنطقية ، كما يفسرها مختلف المفسرين الذين لا يتفقون

جميعهم ، قد تمتعت بشهرة في إنجلترا وإلى حد ما في أمريكا التي بعد أن عرفت جذب مضمونها ، لم تر فيها شيئاً جديراً بالاعتبار . وليس هنا مجال سواء لإعطاء موجز لتاريخها أو لشرح آرائها بالتفصيل ، وينبغي أن نكتفي ببيان عريض عن أهدافها . والهدف الرئيسى للوضعية المنطقية Logical Positivism هو أن يؤثر في عزل « الميتافيزقيات » . ويتحقق هذا بتطبيق ما يسمى بمبدأ التحقق والإثبات Principle of Verifiability . وطبقاً لهذا المبدأ تندرج كافة البيانات الخطيرة تحت فئتين . إما أنها تمثل بيانات يمكن التحقق منها في الواقع أو « من حيث المبدأ » أو أنها مجرد لغو tautologies . وكل الجمل التي تتضمن بيانات أو شبه بيانات ، لا تندرج تحت أى من هاتين الفئتين تستبعد ، على اعتبار أنها غير معقولة وبلا معنى . nonsensical .

هذا هو كما قلنا ملخص بسيط لنظرية الوضعية المنطقية ، وبالرغم مما لها من مفسرين شديدي الحماس ، فإنه من المعروف أنها تتضمن غوامض ، فثلاً ، لو حدث في الواقع مرة أن احتاج تحقيق إلى أن يعقبه تحقيق « من حيث المبدأ » ، لتخلصنا بالفعل من مجال التدجيل ولاستطعنا أن ندخل مجالاً آخر ، ولن يكون من السهل اختيار أى معنى يمكن إسناده ، بناء على نظرية تدعى أنها تخلصت من مفهوم « الحقيقة truth » إلى زيادة استعمال كلمة التحقق Verification . والنقطة التي نود أن نوجه إليها الأنظار هي ما يلي : لو أن نظرية الوضعية المنطقية صحيحة ، فإنه يستتبع ذلك أن كل الأفكار تقريباً التي فسرها الزعماء الروحانيون للجنس البشرى منذ بداية العصر كانت لا معنى لها . وهذه الأفكار لا تمثل في الواقع مفاهيم واضحة - بل لغطاً عاطفياً^(٨) emotional noises ، ومثل هذا في الواقع هو النتيجة التي يقف حيالها

(٨) جدير بالذكر أن البروفسور A.J. Ayer في كتابه المشهور: اللغة حقيقة ومنطق "Language, Truth and Logic" (ط ٢ مع مقدمة جديدة سنة ١٩٤٧) يسقط من حسابه ليس فقط عبارات الميتافيزيقين واللاهوتيين على اعتبار أنها غير معقولة ، بل يسقط من حسابه أيضاً عبارات مثل هذه العبارات السلوكية الشائمة ، أمثال (سرقة المال جرم) فهذه الجملة كما يقول آير هي جملة ليس لها من معنى واقعي . ومثل هذا الجدل يسمى بكل تأكيد إلى ذلك النوع من النظرية الخرقاء التي علق عليها م. ب. بروود C.B. Broad بقوله إنه يمكن قبولها فقط في قاعة محاضرات للفلسفة . وقد يكون طريفاً أن نشاهد في حالة استدعاء أحد دعاة الوضعية المنطقية إلى المحكمة لاثمائه بسرقة طليفة المالك كانت هذه الصورة من الدفاع لها تأثير على القاضي ، إذ ما هو منتظر أن يحدث من إجراءات قانونية لو صار كافة القضاة من دعاة الوضعية المنطقية .

الوضعيون المنطقيون مكتوفى الأيدي باختيارهم .

ولو كان لوجهة نظر الوضعية المنطقية ما يبررها ، لما استتبع ذلك فحسب اعتبار الميتافيزيقية واللاهوت صورا غير مشروعة للبحث والتقصي ، بل لما كانت كل القيم التقليدية لحياتنا المتحضرة شيئا أكثر من أوهام ولكنك لا تستطيع أن تحارب الخرافات إلا من وجهة نظر معينة ، إما أنها « منطقية » أو حتى « حقيقة » . وواضح أنه بالرغم من بُعد الوضعية المنطقية عن القيم المطلقة ، فهي تخفى طول الوقت شيئا ما « مطلقا » في طبيعتها . وفضلا عن ذلك ، فإنه في القول بأن عبارات الميتافيزيقيين واللاهوتيين « هراء عاطفي » ، لا يعد دعاء الوضعية المنطقية (كما تستين فظاظة جدلهم بشكل واضح تماما) فوق مستوى الشبهات هم أنفسهم . وتوكيدات مثل : « الميتافيزيقيات هراء » لها تأثيرها البالغ من حقيقة كونها في جهاد ضد الغموض والجهل . وأخيرا ، فإن الوضعي المنطقي في نضاله العقائدي ، ليس بريئا من اتباع أسلوب عقائدي في عظمته كعظمة غرماثة التقليديين .

المطلق المستتر : The Concealed Absolute

لعل القارئ قد أدرك الآن فكرة هذا الانحراف digression . والفيلسوف ، على النقيض من السفسطائي أو المفتي أو أى داعية من دعاء المذهب المادى الهندي « تشارفاكا Charvaka » أو المذهب الجدلي Dialectician ، يدور اهتمامه حول (ولنستخدم عنوان كتاب عصرى مشهور من كتب الفلسفة) « تفسير الكون » ، وتفق مهمته مع معنى وقيم الحياة ، وحتى لو اتصل من هذه المهمة ، بقصد التفاخر ، فستظل مسئوليات مهنته ملقاة ثقيلة على عاتقه ، وستعقبه نفس المشاكل التى يحاول أن يتخلص منها . وما يتخلص منه - أو ما يزيله من على وجه الأرض كما يقول بود سنيب Podsnape فى كتابه « صديقنا المشترك Our Mutual Friend » - سيعود لمضايقته . هو أشبه بشخص نقلته إلى قمة جبل فى يوم كثيف الضباب : سكة حديد جبلية أو عربة تليفريك teleferic car يسخر من الرحلات التى يقوم بها من يصعدون الجبل على أقدامهم بصعوبة ، ويظل متجاهلا حقيقة أن القمة تشكل جزءا من مجال تعبيرى لشخصية متغيرة إلى ما لانهاية . إن كل ما يراه أمامه نصبا تذكارية حجرية من صنع الإنسان .

ووجهة النظر الفلسفية الكنسية الضيقة هذه هي التي يتبناها دائما من أسماهم الأسقف بيركلي Bishop Berkeley « بالفلاسفة الثوريين minute philosophers » ، والمنهج المنطقي المنسق المرتب لبناتهم الخاص هو الهرم الصخري cairn ، ولكن تماما مثلا أن هذا الهرم الصخري لم يستقر على السهل أسفل الجبل بل على قمة الجبل وهو رمز الإنجاز ، فكذلك « قضايا » منطقيتنا المعاصرين ، تمثل أقصى تجرد للغة من تراثها الفكرى والعاطفى ، فهم يفترضون مسبقا وجود « جبل » الفلسفة الذى صعده الناس فى الماضى جاهدين ليكون فى إمكانهم إعداد أفضل وضع فى الوقت الراهن حتى يمكنهم ابتكار مختلف أساليب الصعود .

وتوحى المجادلات التى تدور حول الوضعية المنطقية كما يوحى التأثير الهدام لنظرياتها ، وقبل كل شىء الحماس الذى يتصدى به دعائها للدفاع عنها ، توحى بأنها تُقاسم طبيعة عقيدة . وإذا ما دخلنا مرة فى مجال عقيدة ، فإن عدم الإيمان أو « التشكك المسلح » ، فى خطورته وإعلامه كالتوكيد الصريح للعقيدة . والخطأ البسيط أو المعيب ، لو كشف مرة لاستحقق الدفن الهادئ : ولسنا فى حاجة لأن نثرثر ونثور على قبره . بيد أن خضم الميتافيزيقيات واللاهوت يرى فى هذه الأشياء وسيلة قوية للإمساك بالروح البشرية فهو يعتبرها بمثابة « أفيون الناس » ، ومن هنا كانت ضغينة التشهير به ، لأنه يعتقد فى نفسه بالمثل أنه زعيم مثقف ستتسابق الجواهر للإنصات إليه يوما ما ، ولذلك فإننا لا ندهش لسماح الادعاء المألوف بالتزاهة ، بالرغم من أننا لا نعلم على أية أسس فلسفية يمكن أن يبرر مثل هذا الولاء التام .

والنظرية التى وجهنا إليها الاهتمام تمثل الموضع النهائى الذى اتخذته الفكر الغربى فى هروبه من « مثالية » الفلسفة التقليدية فى كلا الغرب والشرق . وعبارة « مثالية » من المعروف أنها كلمة لا تشفى فى صور عديدة ، إذا اقرنت لفترة طويلة بنظرية معينة عن المعرفة. ولكن عبارة « روحانى Spiritual » ليست أفضل بكثير ، وعبارة « خارق للطبيعة Supernatural » ربما كانت ، تحقيقا لغرضنا ، أسوأ العبارات جميعها . وتبقى حقيقة أن كل كبار مفكرى البشرية قد لاحظوا تميزا بين الحقيقة الروحانية والحقيقة المادية ، وأنهم قد حاولوا أن يفسروا الأخيرة بالرجوع إلى الأولى وليس العكس . « لقد راعينا أن نهتم بأقل عامل تفسيرى بدلا من اهتمامنا بأسمائها ، كمفتاح

لمشاكلنا . نحن نفسر التصوفية في عبارات تستخدم في الطب وعلم الأمراض ، في حين فسر القدامى المحسوس *Sensible* بتفسيرات دينية وبأسمى فلسفة كان في استطاعتهم أن يفكروا بها ^(٩) . قد رأينا أن مثل هذا المذهب الشكى والمذهب المادى يظهران في فترات معينة في كل تقليد فلسفي في الهند ، في الصين ، في اليونان ، في أوروبا في القرن السابع عشر . وقد وصف المؤلف هذا الدافع إلى المذهب الشكى ، وأخيرا الدافع إلى مذهب اللاشيئية *nihilism* إلى أنه المناهض للفلسفة الدائمة *anti-philosophia perennis* . ولو لم يكن لدى أوروبا المعاصرة شيء لتعلن به عن نفسها سوى هذه العقيدة الإقليمية *provincial doctrine* لبلغ فقرنا أقصى مداه ؛ ولكن ما من أحد على استعداد لأن يعطى لمثل هذه الأمور أهمية ، يمكنه أن يتجاهل تأثير نظرية فلسفية أخرى أكثر عمقا وهي المعروفة باسم المذهب الوجودى أو الوجودية *Existentialism* . وهنا يلاحظ مرة أخرى أن المدارس متعددة والجدل عنيف والنظرية بوجه عام غارقة في غوامض . وداخل « الوجودية » ، كداخل أى مبدأ عريض يهدف إلى فهم الوجود ، كل الاتجاهات الكبرى للبحث الفلسفى واضحة من أقصى الروحانية إلى أقصى المادية : في تباين لمنهاج قاصر مثل الوضعية المنطقية حيث تبقى العناصر الروحانية مستترة *recessive* إلى حد كبير . هذا الظرف الذى قد يدفع بالطالب إلى أن يصبح في حيرة ، يهدى إلى اتجاه عام للفكر ، ولما كان هذا الاتجاه هو اتجاه نحو فهم لمعنى الحياة الذى قد يحتمل أن يتضمن إثبات أنها بلا معنى ، فإنه لا بديل لنا من أن نقتنى أثره .

لقد وجه تولستوى *Tolstoy* الاهتمام في مقال له بعنوان « ما أؤمن به *What I Believe* » إلى حقيقة يجب على دارسى الدراسات الفلسفية والاجتماعية والسيكولوجية أن يصبحوا على علم بها في النهاية : أعنى أن الفقر الفكرى المطلق الذى لو تخلص مرة من القدر الكبير من الحدس والتأمل لظل ظاهرا . ولربما ساعد قدر كبير من حقيقة ، توجتها نظرية خيالية شرقية ، لربما ساعد ، لعدة سنوات في إخفاء هذا القصور ، ولكن يجب أن نقرر أن القرن التاسع عشر بكل منجزاته في المجال التكنيكي

(٩) انظر كتاب . عقل وقلب الحب "The mind and Heart of love" تأليف : م . س . دارسى ،

لم يخلف للبشرية إلا القليل في مجال الحكمة . وكل ما عنده من تفاؤل وثقة بذاته وعوده بالحرية والرخاء ، قد أعقبا انفجاران دوليان يعدان اليوم بأن يبلغا ذروتها في ثالث . وقد كانت هذه الحقائق واضحة لعقول العصر الأكثر حساسية ، ولعل السيرة الذاتية لجون ستيوارت ميل John Stuart Mill كانت أكثر وثائق العصر تأثيرا وإفجاءا : إذ لما بلغ « ميل » حافة اليأس والانتحار من جراء المذهب النفسي التخطيطي Calculating utilitarianism الذي درسه ، لم يجد « ميل » شيئا يلجأ إليه سوى شعر ويردزويرث Wordsworth ، فلما تقدمت به السن ، لجأ إلى ديانة غامضة تنادى بالإصلاح melioristic religion . وقد حلت بـ « تولستوى » نفسه أزمة عاطفية ماثلة وإن اختلفت صورتها . ومع ذلك ، فلقد كان ما هو أكثر خطورة بالنسبة لعصرنا هو الصراع الانفرادي الذي حاربه يانسا : سورين كيركجارد Soren Kierkegaard ، المفكر الدنمركي .

ومن رأى كيركجارد - الذي ولد في سنة ١٨١٣ وتوفي في سنة ١٨٥٥ - أن إنسانية عصره الغامضة صارت لا معنى لها ، بل صارت مجردة من كل فهم وإدراك حتى حقيقة واحدة . وكانت هذه الحقيقة هي الموت ، والقول بأن كيركجارد كان واحدا من أقلية من كبار المفكرين الذين يدركون أن الموت مآل الناس قد يعنى التمسك بوجهة نظر غريبة عما يشكل العظمة . وهناك عصور غير هذه العصور ، وأحيانا حضارات كاملة غير هذه الحضارات - مثل حضارة مصر وبابل - شغلها حقيقة الموت ، ولكن هدف كيركجارد - وقد يكون من الأيسر جدا أن نقول رغبته - هو أن يفعل أكثر من مواجهة معاصريه بعبارة « تذكر الموت Memento mori » ، فلقد اهتم بأن يوضح أن الموت ، بكونه توقفا كاملا ، قد سخر من كل الآمال والقيم التي قامت عليها حضارة القرن التاسع عشر . ولإخفاء مهزلة الموت ، لم يتوقف في الواقع قط كل من علماء الإنسانية والعقليين في القرن التاسع عشر عن أن يقدموا وعودا طائشة بانتصار مؤزر يحمره العلم على الموت ، وكان لا بد من تحقيق ذلك إما بصنع الحياة ذاتها أو بإطالة الحياة البشرية إطالة لا نهاية لها ، لأنه بعد مهزلة الموت تأتي ، كما سبق أن لاحظنا ، مهزلة الكهولة .

ولإدراك طبيعة الوجود الحق ، كما قال كيركجارد ، هو أن تواجه اليأس ، لأنه

أوضح حقيقة الوجود ، أعنى أن نهايتها الفجائية ، طالت أم قصرت . ليست مفهومة على المستوى الوجودي^(١٠) . ونحن في الوجود ننتهي إلى شيء - أسرة ، مجتمع ، مهنة ، وطن ، أجناس بشرية ، ولكن عند الموت ننتهي فقط إلى أنفسنا ، ولهذا نحن مضطرون لأن نعيش في حالة عذاب (قلق) دائم . ونخدم المجموعة التي نحن أعضاء فيها حتى يوم وفاتنا . ولكن لما كنا على علم بأن خدمة على مثل هذه الشاكلة أمر لا يعبا به مجتمع ما سجل مرضنا ، فنستمر بقدر ما كانت عليه من قبل . وكل الإجراءات الدقيقة للخدمة الاجتماعية ، وقبل كل شيء تأمين « من المهدي إلى اللحد » ، هي محاولات وهمية « للإنسان المواطن » ، ليوحى لنفسه بأن المجتمع يهتم « بالإنسان الفرد » . والواقع هو أن المجتمع لا يعيره أى اهتمام ، لأن المجتمع ، نظرا لأنه لا شخصية له ، غير أهل للجزع . والدولة ذات الخدمات الاجتماعية التي يعتقد المثاليون الاجتماعيون العصريون أنها أعظم المنجزات في عصرنا ، هي فحسب الحارس القضالي للمثل العليا للإنسانية الفلسفة .

وليس الموت وحده هو الذى يحيل الحياة لا معنى لها ، وإذ نفس الشيء صحيح بالنسبة للرغبة ، كما أشار إلى ذلك بالفعل شوبنهاور Schopenhauer . وهنا تتقارب وجهة نظر الوجوديين من وجهة نظر كبار حكماء الشرق وبصورة خاصة وجهة نظر البوذا . وعلى المستوى الطبيعي ، فإن كل الحب حتى حب المتطلب اسميا ، حب بلا أمل ، لانه يخلق صورة وهمية آمالا يعجز الإنسان عن تحقيقها ونظرا لاستحالة بلوغ مثل هذا الأمر وتملكه ، نشأت هناك في أوروبا تلك العقيدة المسماة بعقيدة إيروس Cult of Eros^(١١) ، وهى عقيدة ، كما أوضح كثير من الكتاب العصريين^(١٢) ، ولدت فضيلة الإحباط واليأس . وهناك لحظة تمر بها كل حالة من حالات الحب يصبح

(١٠) من المحتمل أن تصبح هذه الحقائق أكثر وضوحاً عند ذوى المزاج الرقيق ، وهذا يذكر المرء بملاحظة « من دبيراند Maine de Biran » وهى : إن الأشرار هم من يحسون وحدهم بالوجود "Seuls les gens malsains se sentent exister"

(١١) إيروس : إله الحب عند الإغريق . (المترجم) .

(١٢) على سبيل المثال س . س . لويس C.S. Lewis في كتابه «أنشودة الحب» "The Allegory of Love"

وكذلك ديس دي روجمان Denis De Rougement في كتابه الحب والمجتمع Passion and Society

ترجمة مونتجمرى بليجيون "Montgomery Beligion"

فيها العنك والرضا أو ما يطلق عليه أخصائيو إحصائيات الجنس الأمريكيون اسما غير جذاب على الإطلاق ، يصبح شيئا غير ملائم ، عندما « لا يمكن لأي اتصال محتمل بالجسد ، أن يهدئ من حمى العظام » ، عندما يكاد يكون الهدف الأصلي منسيا أو ، لو استحضرتين أنه قل أن يدرك . ورفض مواجهة مثل هذه الحقائق أو استبعادها على اعتبار أنها ادعاء خيالي ، لا يكفي . ومحاولة اعتبار العاطفة لا عاطفية ، سواء « كحقيقة بيولوجية » أو ضرورة صحية ، يولد عذابا الذاتي بصورة خاصة ، لأن الشهوة بسرّيتها الرهيبة ، أقل إذعانا بكثير للقناعة منها للحب .. وكل الداعرين خبرتهم ذاتية . Solipsists . وعلى غير شاكلة غيره من معظم رمى اليأس المعاصرين ، وجد كيركجارد جوابا لمشاكلة في الإيمان ، ففي الإيمان وحده صار توتر الوجود محتلا أو حتى يمكن إدراكه ، لأن الناس يمكن أن يتعلموا « تحمل » الحياة في صور مختلفة - فهناك حل قصير المدى لكل شيء . وحتى الفلاسفة المعاصرين الذين لا يتقبلون حل كيركجارد يواجهون على الأقل هذه المشاكل الأساسية بإصرار . وللإصرار ، مع « جان بول سارتر Jean-Paul Sartre » على أن « الإنسان عاطفة عديمة النفع » هو أن نقول على الأقل إن شيئا ما مذكر ، عاطفي ، ومن ثم فهو ليس عديم النفع تماما . وليس مصادفة أن الإنسان وحده يمكن أن يقول هذه الأشياء ، إنه يمكن أن يؤكد لو أمكنه فقط أن ينكر ، وأنه يمكن أن يتحمل نتائج مثل هذا التوكيد والإنكار . وفي دراستنا الشاملة ، مررنا بمفكر في إثر مفكر - المصري عدو البشر ، والحكماء : خخير يسونب ، ايبور ، أمينيموب ، زارادشت ، وكاتبو المزامير العبرانيين والأنبياء العبرانيون وكبار الزعماء الروحانيين في الهند والصين - الذين نادوا ، وغالبا ما كان دون ما استناد إلى منطق أو تأييد من إلهام ، نادوا « بالعلاقة المقدسة » ، « ماعت » ، « الطاو » ، « الطريق » ، بإجماع يستحيل أن نخلطه بمحض اتفاق ، ومن الحماقة استبعاده على أنه وهم أو شعير ، وليس مصادفة أن يلقب مثل هؤلاء الأشخاص بالجيناس Jainas أو النبيين والبوذات والمبشرين بالتور ورمى الحكمة ، كما لا تتصور زمتنا ستصبح فيه تعاليمهم غير عصرية ، ما لم يشأ رجال في النهاية أن يجحدوا إنسانيتهم جملة . وعالم الغرب ، وقد أمد الشرق ببعض نماذج غامضة من حكمته الذاتية ، قد يستفيد فائدة تامة من معرفة أعمق بهذا التعقيد الشرق العظيم ، الذي يعيد إلى الأذهان منبع الحكمة الذي استمد منه إيمانه

الذاتي . وهناك كثيرون ممن لا بد وأنه يبدو لهم دائما أن اللاشعورية الواضحة للفكر الشرقي فاشلة ، وفي رأيهم أن الدعوة إلى الهروب من الطبيعة وابتغاء عالم الروح فيما وراء الإدراك ما هو إلا نموذج غريب للفرور الإنساني والزيغ الذاتي ، ويجب على كل شخص أن يختار من هذا المستودع ما يوائم احتياجاته الفردية . ولعل أكثر التعاليم ألفة واجتذابا للعقلية الغربية هي التي تحتويها الـ « بها جافاد - جيتا » مع توكيدها على الـ « بهاكتي » أو التبعيد للإله لأننا نكتشف في رؤيا « سرى - كريشنا » إلى « أرجونا » أنبل رسالة صدرت عن عالم الشرق قاطبة : الدعوات إلى مواجهة المستقبل ومخاطره في استسلام ، في رهبة ، بل حتى في لمسة من عذاب ، بل وبلا خوف .